

التفسير المحرر 26-10126-1.0

وظهر للمشركين في الآخرة ظهورًا بيّنًا سيئات ما عملوه في الدنيا من الكفر والمعاصي، ونزل وأحاط بهم عذاب الله الذي كانوا في الدنيا يسخرون منه، ويستهزئون به.

ويقال لهم: اليوم نترككم في العذاب كما تركتم في الدنيا الإيمان والعمل الصالح للقاء هذا اليوم، ومقرركم ومسكنكم النار، تستقرون فيها أبدًا، وما لكم -أيها المشركون- أي أحد ينصركم فينقذكم من عذاب الله تعالى.

ذلك يحل بكم؛ بسبب أنكم اتخذتم آيات الله سُخريةً، تسخرون منها، وتستهزئون بها، وبسبب انخداكم بالحياة الدنيا، فعملتم لها وأنزثموها، وأعرضتم عن العمل للآخرة وأنكرثموها! فالיום لا يخرج أولئك الكافرون من النار، ولا يطلب منهم يوم القيامة فعل ما يرضي الله، بالتوبة إليه وطاعته؛ حتى تزال عنهم المعائب والمؤاخذه بذنوبهم.

فille وحده الثناء الكامل على ما يتصف به من صفات الكمال؛ محبة له وتعظيمًا؛ خالق السموات والأرض، ومالكهما، ومدبر أمرهما، خالق جميع الخلق، ومالكهم ورازقهم، ومدبر شؤونهم.

ولله وحده العظمة والجلال والسلطان في السموات والأرض، الذي يجب على جميع خلقه تكبيره وتعظيمه، والخضوع والذل له، والله هو القاهر الغالب الذي لا يغلبه ولا يقهره شيء سبحانه، وهو الحكيم فيما خلق وشرع وقدر؛ فلا يضع شيئًا إلا في موضعه اللائق به.

افتتحت هذه السورة بهذين الحرفين من الحروف المقطعة التي يستفتح بها كثير من سور القرآن لبيان إعجازه؛ حيث

تُظْهِرُ عَجْزَ الْخَلْقِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ مَرَكَّبٌ مِنْ هَذِهِ
الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي يَتَحَدَّثُونَ بِهَا
تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْقَاهِرِ الْغَالِبِ، الْمُمْتَنِعِ عَنْ كُلِّ
غَيْبٍ وَنَقْصٍ، الْحَكِيمِ الَّذِي يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ اللَّائِقِ
بِهِ

مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخَلْقِ إِلَّا بِالْعَدْلِ
وَالْحِكْمَةِ، وَبِمُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مَضْرُوبَةٍ بِلا زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ، فَتَنْتَهِي
إِلَيْهِ وَتَقْنَى فِيهِ، وَهُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ
مُعْرَضُونَ عَمَّا خُوفُوا بِهِ فِي الْقُرْآنِ وَخُذِرُوا

قُلْ - يَا مُحَمَّدُ- لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِكَ: أَرَأَيْتُمْ الَّذِينَ تَدْعُوهُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ مَعْبُودَاتِكُمْ، أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ
فَاسْتَحَقُّوا بِذَلِكَ عِبَادَتَكُمْ لَهُمْ؟! أَمْ لَتلكَ الْآلِهَةِ الْمَرْعُومَةِ نَصِيبٌ
مَعَ اللَّهِ تَعَالَى فِي السَّمَوَاتِ؛ خَلَقًا أَوْ مِلَكًا أَوْ تَدْبِيرًا؛ فَيَكُونُ لَكُمْ
بِذَلِكَ حُجَّةٌ عَلَى عِبَادَتِكُمْ لَهَا؟! أَحْضِرُوا لِي كِتَابًا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ
عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، يُخْبِرُ بَأَنَّ آلِهَتَكُمْ مُسْتَحَقَّةٌ
لِلْعِبَادَةِ! أَوْ هَاتُوا دَلِيلًا مِنْ بَقِيَّةِ عِلْمٍ مَأْثُورٍ عَنِ السَّابِقِينَ يَدُلُّ عَلَى
صِحَّةِ عِبَادَتِكُمْ آلِهَتِكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
شَرِيكًا!

وَلَا أَحَدٌ أَشَدُّ ضَلَالًا مِنْ عَبْدٍ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَا تُجِيبُ
دُعَاءَهُ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ فِي غَفْلَةٍ عَنِ دُعَاءِ عَابِدِيهَا،
فَلَا تَعْلَمُ مَنْ يَدْعُوهَا، وَلَا تَسْمَعُهُ

وَإِذَا جَمَعَ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ، كَانَتْ هَذِهِ الْآلِهَةُ
الَّتِي يَدْعُوهَا الْمُشْرِكُونَ أَعْدَاءَ لَهُمْ، وَكَانَتْ جَاغِدَةً مُنْكَرَةً
لِعِبَادَتِهِمْ لَهَا فِي الدُّنْيَا!

وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَى الْمُشْرِكِينَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْوَاضِحَاتُ، قَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ لِلْحَقِّ حِينَ جَاءَهُمْ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى: هَذَا الْقُرْآنُ سِحْرٌ وَاضِحٌ!

أَمْ يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ: اخْتَلَقَ مُحَمَّدٌ الْقُرْآنَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَنَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ كَذِبًا؟ قُلْ -يَا مُحَمَّدٌ- لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ: إِنْ اخْتَلَقْتُ الْقُرْآنَ -كَمَا تَزْعُمُونَ- فَلَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَدْفَعُوا عَنِّي شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ عَاقَبْتَنِي؛ جَزَاءَ كَذِبِي عَلَيْهِ !اللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ سِوَاهُ بِمَا تَقُولُونَهُ فِي الْقُرْآنِ؛ مِنْ طَعْنٍ فِيهِ، أَوْ تَكْذِيبٍ بِهِ، أَوْ وَصْفِهِ بِمَا لَا يَلِيقُ، كَفَى بِاللَّهِ الْعَالِمِ بِحَالِي وَحَالِكُمْ شَاهِدًا يَحْكُمُ بِشَهَادَتِهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَيُجَازِي كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ، وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَسْتُرَ ذُنُوبَ عِبَادِهِ، وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُوَآخَذَتِهِمْ بِهَا، وَيَرْحَمَهُمْ

قُلْ -يَا مُحَمَّدٌ- لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ: مَا كُنْتُ أَوَّلَ رُسُلِ اللَّهِ إِلَى الْبَشَرِ؛ فَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِي كَثِيرًا مِنَ الرُّسُلِ إِلَى أُمَمِهِمْ، وَبِمِثْلِ مَا أَرْسَلَنِي بِهِ، فَلِمَ تَسْتَكْبِرُونَ رِسَالَتِي؟ أَلَسْتُ إِلَّا بَشَرًا، وَلَيْسَ بِيَدِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ؛ فَلَا أَعْلَمُ مَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ بِي، وَلَا مَا يَفْعَلُهُ بِكُمْ! مَا أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُنْزِلُهُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الْوَحْيِ، وَمَا أَنَا لَكُمْ إِلَّا نَذِيرٌ أَبِينُ وَأُظْهِرُ لَكُمْ الْإِنذَارَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَأُمْرِي بَأَنْتُمْ ظَاهِرٌ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ

قُلْ -يَا مُحَمَّدٌ- لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ نَازِلًا إِلَيَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَفَرْتُمْ بِهِ، أَلَا تَكُونُونَ بِذَلِكَ ظَالِمِينَ وَضَالِّينَ عَنِ الْحَقِّ؟ وَقَدْ شَهِدَ مَنْ شَهِدَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ؛ فَأَمَنْ هُوَ بِالْقُرْآنِ، وَاسْتَكْبَرْتُمْ أَنْتُمْ -أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ- عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ! إِنَّ اللَّهَ لَا يُوقِقُ لِإِصَابَةِ

الْحَقِّ الْقَوْمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ بِاللَّهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَنْ قَبُولِ
الْحَقِّ مَعَ وَضُوحِهِ

وَقَالَ كُفَّارُ فُرَيْشٍ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ: لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ
خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعَفُونَ
الْفُقَرَاءُ الْأَذِلَّةَاءُ، وَلَبَادَرْنَا إِلَيْهِ قَبْلَهُمْ؛ فَحَنُّ أَشْرَفُ مِنْهُمْ وَأَعَزُّ،
وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا! وَحِينَ لَا يَهْتَدِي الْمُشْرِكُونَ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّهُمْ
سَيَقُولُونَ: هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ كَذِبٌ مِنْ أَخْبَارِ
الْأَقْدَمِينَ!

وَمِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ النَّوْرَةُ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى إِمَامًا
لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يَأْتُمُونَ بِمَا فِيهَا، وَرَحْمَةٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
إِنْ اتَّبَعُوهَا، وَهَذَا الْقُرْآنُ مُصَدِّقٌ لِلنَّوْرَةِ وَلِكُتُبِ اللَّهِ السَّابِقَةِ،
حَالٌ كَوْنِهِ لِسَانًا عَرَبِيًّا فَصِيحًا وَاضِحًا، لِيُخَوِّفَ الظَّالِمِينَ،
وَيُحَذِّرَهم مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى ظُلْمِهِمْ، وَهَذَا الْقُرْآنُ
بُشْرَى بِالْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي إِيْمَانِهِمْ
وَطَاعَتِهِمْ لِلَّهِ

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ وَحْدَهُ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ،
وَامْتَنَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتَنَابِ نَوَاهِيهِ، وَدَاوَمُوا عَلَى طَاعَتِهِ مُدَّةَ
حَيَاتِهِمْ بِمَا شَرَعَ بِلَا مِيلٍ وَلَا اعْوِجَاجٍ، وَلَا إِفْرَاطٍ مِنْهُمْ وَلَا
تَقْرِيطٍ؛ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَيْ شَرٍّ وَمَكْرِهِ فِي مُسْتَقْبَلِ
زَمَانِهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا مَضَى

أُولَئِكَ هُمُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْمَلَزَمُونَ لَهَا، الْمُخَنِّصُونَ بِهَا،
يَمْكُثُونَ فِيهَا أَبَدًا، ثَوَابًا مِنَ اللَّهِ لَهُمْ؛ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ فِي
الدُّنْيَا مِنَ الصَّالِحَاتِ

وَأَمَرْنَا الْإِنْسَانَ وَعَهَدْنَا إِلَيْهِ عَهْدًا أَنْ يُحْسِنَ إِلَى وَالِدَيْهِ
وَيَبْرَرَ هُمَا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ فِي بَطْنِهَا فَقَاسَتْ فِي ذَلِكَ مَشَقَّةً شَدِيدَةً
جَعَلَتْهَا كَارِهَةً لِأَحْوَالِ ذَلِكَ الْحَمْلِ؛ مِنَ الثَّقَلِ، وَالْعَنْيَانِ،
وَالضَّعْفِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَتَضَعُ مَوْلُودَهَا بِأَلَامٍ شَدِيدَةٍ وَمَشَقَّةٍ
عَظِيمَةٍ تَجْعَلُهَا كَارِهَةً لَوَضْعِهِ، وَمُدَّةَ حَمْلِ الْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ
مَعَ مُدَّةِ فَطَامِهِ مِنَ الرَّضَاعِ تَبْلُغُ ثَلَاثِينَ شَهْرًا، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْوَلَدُ
شِدَّةَ قُوَّتِهِ وَكَمَالَ عَقْلِهِ، وَذَلِكَ فِي سِنِّ الشَّبَابِ، وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً،
فَكَمَلَ حِينَهَا عَقْلُهُ وَقُوَّتُهُ، وَتَكَامَلَتْ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، قَالَ: رَبِّ
أَلْهَمْنِي وَوَفَّقْنِي لِأَنْ أَشْكُرَ مَا أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ، وَعَلَى أَبِي وَأُمِّي،
وَلِأَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا يُرْضِيكَ عَنِّي، وَتَقْبَلَهُ مِنِّي، وَأَصْلِحْ
لِي نَسْلِي وَعَقْبِي بِأَنْ تَهْدِيَهُمَ لِلإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَتُصْلِحْ
أَحْوَالَهُمْ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ مِنْ ذُنُوبِي السَّابِقَةِ، وَرَجَعْتُ إِلَى
طَاعَتِكَ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْتَغْلِمِينَ لَكَ بِالتَّوْحِيدِ، الْمُنْقَادِينَ لِحُكْمِكَ،
الْخَاضِعِينَ لَكَ بِالطَّاعَةِ فِي أَمْرِكَ وَنَهْيِكَ

أُولَئِكَ يَتَقَبَّلُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا؛ فَيُنِيبُهُمْ
عَلَيْهِ، وَيَصْفَحُ عَنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمْ؛ فَلَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ فِي
عِدَادِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، الَّذِينَ يُفْعَلُ بِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ، وَعَدَ اللَّهُ أَهْلَ الإِيمَانِ
أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ وَعَدَ الصِّدْقِ وَالْحَقِّ
الَّذِي لَا يُخَافُ، فَهُوَ مُوفٍ لَهُمْ بِهِ وَلَا شَكَّ

وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ إِذْ دَعَاوَاهُ إِلَى الإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،
مُتَضَجِّرًا مِنْهُمَا: أَفٍّ لَكُمَا، أَتُعِدَانِنِي أَنْ أَبْعَثَ بَعْدَ مَوْتِي، فَأُخْرَجَ
مِنْ قَبْرِ حَيًّا، وَالْحَالُ أَنَّهُ قَدْ مَضَتْ الْأُمَمُ الْأُولَى قَبْلِي، وَلَمْ
يَرْجِعْ مِنْهُمْ أَحَدٌ بَعْدَ مَوْتِهِ؟! وَوَالِدَاهُ يَطْلُبَانِ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُغْنِيَهُمَا
بِأَنْ يَهْدِيَ ابْنَهُمَا إِلَى الْحَقِّ، وَيَقُولَانِ لَوَالِدَيْهِمَا الْكَافِرِ: وَيَلَيْكَ أَمِنْ

بما وَعَدَ اللهُ به عِبَادَهُ مِنَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، إِنَّ مَا وَعَدَ اللهُ به عِبَادَهُ مِنَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ صِدْقٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَوَعْدٌ لَا خُلْفَ فِيهِ، فَيَقُولُ هَذَا الْمُكَذِّبُ بِالْبَعْثِ لَوَالِدِيهِ: مَا هَذَا الَّذِي تَدْعُونِي إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْأَقْدَمِينَ وَقِصَصُهُمُ الَّتِي سَطَّرُوها فِي كُتُبِهِمْ، وَهِيَ خُرَافَاتٌ بَاطِلَةٌ لَا حَقِيقَةَ لَهَا !
أُولَئِكَ الْعَاقُونَ الْمُكَذِّبُونَ بِالْبَعْثِ الْقَائِلُونَ تِلْكَ الْمَقَالَاتِ: هُمُ الَّذِينَ وَجَبَ عَلَيْهِمْ عَذَابُ اللهِ، وَسَبَقَ عَلَيْهِمُ الْقَضَاءُ بِذَلِكَ، كَانِنِينَ فِي جُمْلَةٍ مَن يُعَذِّبُهُم مِّنَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ الَّتِي مَضَتْ قَبْلَهُمْ مِّنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، فَسَيَدْخُلُ أُولَئِكَ فِي عَذَابِهِمْ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ بِبَيْعِهِمُ الْهُدَى بِالضَّلَالِ، وَالْجَنَّةَ بِالنَّارِ، وَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَلِكُلِّ مِّنْ هَؤُلَاءِ الْفَرِيقَيْنِ: فَرِيقِ الْمُؤْمِنِ الْبَارِّ بَوَالِدِيهِ، وَفَرِيقِ الْكَافِرِ الْعَاقِ لَوَالِدِيهِ- مَنَازِلٌ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَبِ مَا عَمَلُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَلِيُعْطِيَهُمُ اللهُ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمَلُوهَا كَامِلًا وَاقِفًا، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ؛ فَلَا يُنْقَصُ مِنْ ثَوَابِ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا يُزَادُ فِي عِقَابِ الْمُسِيئِينَ، وَلَا يُحْمَلُونَ ذُنُوبَ غَيْرِهِمْ، وَلَا يُعَاقَبُونَ عَلَى مَا لَمْ يَعْمَلُوهُ

وَادْكُرْ -يَا مُحَمَّدُ- يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ عَلَى النَّارِ، وَيُقَالُ لَهُمْ تَوْبِيحًا: اسْتَمْتَعْتُمْ بِالْمَلَذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، فَاسْتَوْفَيْتُمُوهَا فِي دُنْيَاكُمْ؛ فَأَنْتُمْ تُحْرَمُونَ مِنْهَا فِي آخِرَاكُمْ الَّتِي لَمْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِهَا شَيْئًا إِفَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ الْعَذَابَ الَّذِي يَهْيِئُكُمْ وَيُخْزِيكُمْ وَيُذَلِّكُمْ؛ بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِكُمْ فِي الْأَرْضِ ظُلْمًا بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لِّذَلِكَ، وَبِسَبَبِ خُرُوجِكُمْ عَنِ طَاعَةِ اللهِ، وَوُقُوعِكُمْ فِي مَعْصِيَتِهِ

واذْكُرْ -يا مُحَمَّدُ- هُوْدًا أَخَا عَادٍ فِي النَّسَبِ حِينَ خَوْفٍ وَحَذَرٍ
قَوْمَهُ عَذَابَ اللَّهِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِمَنْطِقَةِ الْأَحْقَافِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا
مَنَازِلُهُمْ، وَقَدْ مَضَتْ الرُّسُلُ بِإِنذَارِ قَوْمِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ إِنْ عَبَدُوا
غَيْرَهُ، مِنْ قَبْلِ هُوْدٍ وَمِنْ بَعْدِهِ، وَقَالَ هُوْدٌ لِقَوْمِهِ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يُصِيبَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ هَائِلٍ

قَالَ كُفَّارُ عَادٍ لِنَبِيِّهِمْ هُوْدٍ: أَجِئْنَا لِنَصْرِفَنَّا وَتَصُدَّنَّا عَنْ عِبَادَةِ
الْهَتْنَا، فَتَنْتَرِكْهَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ؟! فَعَجَّلَ لَنَا -يا هُوْدُ- هَذَا
العَذَابَ الَّذِي تَعِدُّنَا بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا تَدَّعِيهِ !

قَالَ هُوْدٌ لِقَوْمِهِ: إِنَّمَا الْعِلْمُ بِوَقْتِ مَجِيءِ الْعَذَابِ عِنْدَ اللَّهِ لَا
عِنْدِي؛ فَهُوَ مَنْ يُنْزِلُ عَلَيْكُمْ عَذَابَهُ مَتَى شَاءَ، وَإِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ
مِنَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، وَمَا عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أَبْلَغَكُمْ عَنْ رَبِّكُمْ مَا أَمَرَنِي بِدَعْوَتِكُمْ
إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَغَيْرِهِ، وَلَكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ الْحَقَّ؛
فَصَدَّرَ مِنْكُمْ مَا صَدَرَ مِنْ جُرْأَةٍ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَاسْتَعْجَالَ
العَذَابِ

فَلَمَّا جَاءَ كُفَّارَ عَادٍ عَذَابُ اللَّهِ، فَرَّاهُ سَحَابًا أَسْوَدَ مُعْتَرِضًا
فِي الْأَفْقِ يَسِيرُ نَحْوَ أَوْدِيَّتِهِمْ؛ ظَنُّوهُ مَطَرًا سَيَنْزِلُ عَلَيْهِمْ، فَفَرَحُوا
بِهِ، وَقَالُوا: هَذَا سَحَابٌ سَيُمِطِرُنَا! قِيلَ لَهُمْ: مَا رَأَيْتُمُوهُ لَيْسَ
سَحَابًا مُمِطِرًا فِي الْوَاقِعِ كَمَا ظَنَنْتُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي
اسْتَعْجَلْتُمُوهُ؛ هُوَ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ مُوجِعٌ شَدِيدُ الْإِيلَامِ !

تَهْلِكُ الرِّيحُ كُلَّ شَيْءٍ مَرَّتْ بِهِ مِمَّا أُرْسِلَتْ بِهِ لِكَيْ يَهْلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ
لَهَا فِي ذَلِكَ، فَاصْبَحَ قَوْمُ هُوْدٍ هَالِكِينَ كُلُّهُمْ؛ فَلَا يَرَى مِنْ بَلَادِهِمْ
شَيْءٌ إِلَّا مَنَازِلَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَسْكُنُونَهَا، مِثْلَ هَذَا الْجَزَاءِ الَّذِي
جَازَيْنَا بِهِ عَادًا قَوْمَ هُوْدٍ فِي الدُّنْيَا نَجْزِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ

طَغَوْا وَعَتَوْا؛ فَلْيَحْذَرِ الْمَشْرِكُونَ الْمُخَالِفُونَ أَمَرَ اللَّهِ أَنْ تُهْلِكَهُمْ
كَمَا أَهْلَكْنَا مَنْ قَبْلَهُمْ

قال الله لِكُفَّارِ فُرَيْشٍ: ولقد مكَّنَّا عَادًا فِي الَّذِي لَمْ نُمْكِّنْ لَكُمْ
فِيهِ؛ مِنْ كَثْرَةِ الْأَمْوَالِ، وَقُوَّةِ الْأَبْدَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَأَهْلَكْنَا هُمْ
بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، مَعَ أَنَّهُمْ أَعْظَمُ مِنْكُمْ تَمْكِينًا؛ فَلَا تَظُنُّوا أَنَّ مَا مُكِّنْتُمْ
فِيهِ سَيَدْفَعُ عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ
وَتَكْذِيبِكُمْ! وَجَعَلْنَا لِكُفَّارِ عَادٍ سَمْعًا لِيَسْمَعُوا بِهِ الْحَقَّ، وَأَبْصَارًا
لِيُبْصِرُوهُ بِهَا، وَقُلُوبًا لِيَعْقِلُوهُ بِهَا، فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ شَيْءٌ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ
يُخْلَ بِأَدْرَاكِهِمْ لِلْحَقِّ، فَمَا نَفَعَهُمْ مَا أُوتُوهُ مِنَ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ
وَالْعُقُولِ شَيْئًا؛ إِذْ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِي مَعْرِفَةِ الصَّوَابِ، وَلَمْ
يُعْمِلُوهَا لِدَفْعِ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُكْذِبُونَ بآيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ لَهُمْ
عَلَى الْحَقِّ، وَنَزَلَ وَأَحَاطَ بِهِمْ عَذَابُ اللَّهِ، الَّذِي كَانُوا يَسْخَرُونَ
مِنْهُ، وَيُكْذِبُونَ بِوُقُوعِهِ؛ فَاحْذَرُوا -أَيُّهَا الْمَشْرِكُونَ- أَنْ يُصِيبَكُمْ
مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ

ولقد أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ -يَا أَهْلَ مَكَّةَ- مِنْ الْقُرَى؛ كِبَلَادٍ عَادٍ،
وَسَبْيًا، وَثَمُودَ، وَمَدْيَنَ، وَغَيْرَهَا، وَنَوَّعْنَا أَصْنَافَ الْآيَاتِ
وَبَيِّنَّاها؛ لِيَرْجِعُوا عَنْ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ، فَلَمْ يَفْعَلُوا؛
فَأَهْلَكْنَا هُمْ

فَهَلَّا نَصَرَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَنْ اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ
يَتَقَرَّبُونَ بِعِبَادَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ؛ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَهُ! لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا
ظَنَّ الْمَشْرِكُونَ، فَلَمْ تَنْصُرْهُمْ مَعْبُودَاتُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَغَابَتْ
عَنْهُمْ عِنْدَ نَزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ! وَذَلِكَ -أَي: اتَّخَذَهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ
اللَّهِ- هُوَ كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ حِينَ ادَّعَوْا أَنَّهَا آلِهَةٌ تَنْصُرُهُمْ
وَتَنْفَعُهُمْ، فَخَذَلَتْهُمْ وَلَمْ يَنْفَعُوا بِهَا

واذْكُرْ -يا مُحَمَّدُ- حِينَ بَعَثْنَا إِلَيْكَ طَائِفَةً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ
مِنْكَ الْقُرْآنَ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اسْكُتُوا لِنَسْتَمِعَ
إِلَيْهِ، فَلَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ
انصَرَفَ أَوْلَئِكَ النَّفَرُ إِلَى قَوْمِهِمْ مِنَ الْجِنِّ مُخَوِّفِينَ لَهُمْ،
وَمُحَذِّرِينَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ

قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: يَا قَوْمَنَا، إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا -وهو الْقُرْآنُ- أُنْزِلَ
مِنْ بَعْدِ التَّوْرَةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى، مُوَافِقًا لِمَا قَبْلَهُ مِنْ كُتُبِ
اللَّهِ، يُرْشِدُ هَذَا الْقُرْآنُ إِلَى الْحَقِّ، وَإِلَى طَرِيقٍ لَا اِعْوِجَاجَ فِيهِ،
مُوصِلٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى جَنَّتِهِ

يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ الَّذِي يَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَحَدِّهِ
وِطَاعَتِهِ، وَآمِنُوا بِاللَّهِ، فَإِنْ أَجَبْتُمْ دَاعِيَ اللَّهِ وَأَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ
يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، فَيَسِّرُهَا عَلَيْكُمْ وَلَا يُؤَاخِذْكُمْ بِهَا، وَيُؤْمِنُكُمْ
مِنْ عَذَابٍ مُوجِعٍ شَدِيدٍ الْإِيلَامِ

وَمَنْ لَا يُجِبْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ
بِاللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَلَنْ يُعْجِزَ اللَّهُ بِالْهَرَبِ مِنْهُ إِذَا أَرَادَ عِقَابَهُ؛ فَهُوَ
فِي قَبْضَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارٌ يَمْنَعُونَهُ
وَيَحْمُونَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، أَوْلَئِكَ فِي انصِرَافٍ وَذَهَابٍ وَاضِحٍ عَنِ
الْحَقِّ

أَوَلَمْ يَرَ الْمُنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ، الْمُسْتَبْعِدُونَ لِقِيَامِ الْأَجْسَادِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ: أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَمْ يَعْجِزْ عَنْ
خَلْقِهِنَّ -عَلَى عَظَمَتِهِنَّ وَسَعَتِهِنَّ وَإِتْقَانِ خَلْقِهِنَّ- أَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ
إِعَادَةُ النَّاسِ أَحْيَاءَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ قُدْرَةً عَظِيمَةً
تَامَةً؟! بَلَى هُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ، لَا يُعْجِزُهُ سُبْحَانَهُ شَيْءٌ

واذْكُرْ -يا مُحَمَّدٌ- يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَكَذَّبُوا
بِالْبَعْثِ عَلَى النَّارِ، وَيُقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخًا: أليس هذا العذاب -الَّذِي
تَحْضُرُونَهُ وَتُشَاهِدُونَهُ الْآنَ، وَقَدْ كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا- أَمْرًا
ثَابِتًا وَاقِعًا؟! قَالُوا: بلى، هذا العذابُ حَقٌّ ثَابِتٌ وَوَاقِعٌ، وَنُقَسِّمُ
عَلَى ذَلِكَ بَرَبَّنَا، قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: فَذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ؛ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ
بِالْحَقِّ فِي الدُّنْيَا

فَاصْبِرْ -يا مُحَمَّدٌ- عَلَى مَا يُصِيبُكَ فِي اللَّهِ مِنَ الْأَذَى وَالشَّدَائِدِ
كَمَا صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ أَصْحَابُ الْعِزِّ وَالْجِدِّ وَالْهِمَّةِ الْعَالِيَةِ مِنَ
الرُّسُلِ السَّابِقِينَ، وَلَا تَطْلُبْ تَعْجِيلَ وَقُوعِ الْعَذَابِ عَلَى
الْمُشْرِكِينَ؛ فَهُمْ مُعَذَّبُونَ لَا مَحَالَةَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ
لَهُلَاكِهِمْ، كَانْتَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ عَذَابَ اللَّهِ لَمْ يَلْبَثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً
وَاحِدَةً مِنْ سَاعَاتِ النَّهَارِ، وَيَنْسَوْنَ طُولَ لُبْثِهِمْ فِي الدُّنْيَا! هَذَا
الْقُرْآنُ بَلَاغٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، فَهَلْ يَهْلِكُ بِالْعَذَابِ بَعْدَ هَذَا الْبَلَاغِ إِلَّا
الْقَوْمُ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَفَرُوا بِهِ، وَخَالَفُوا
أَوْامِرَهُ؛ فَاسْتَحَقُّوا عَذَابَهُ؟!!

الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ وَصَدُّوا أَنْفُسَهُمْ وَغَيَّرَهُمْ عَنْ طَرِيقِهِ
وَاتِّبَاعِهِ، جَعَلَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ سُدًى لَا نَفْعَ فِيهَا.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ بِإِخْلَاصٍ لِلَّهِ تَعَالَى
وَمُتَابَعَةٍ لِشَرْعِهِ، وَآمَنُوا بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ
-وهذا القرآنُ هو الحقُّ الكاملُ، وَالصِّدْقُ الثَّابِتُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ-
، تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْ مُؤَاخَذَتِهِمْ بِسَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمْ، فَلَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا،
وَأَصْلَحَ اللَّهُ شَأْنَهُمْ وَحَالَهُمْ.

ذَلِكَ الْإِضْلَالُ لِأَعْمَالِ الْكَافِرِينَ بِسَبَبِ اتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ،
وَإِثَارِهِمْ لَهُ عَلَى الْحَقِّ، وَذَلِكَ التَّكْفِيرُ لِسَيِّئَاتِ الْمُؤْمِنِينَ

وإصلاح بالهم بسبب إيتابهم الحق الذي جاءهم من ربهم، مثل ذلك البيان لحال أو مال الكافرين والمؤمنين يُمثل الله للناس أصنافهم وأحوالهم، بحيث لا تخفى ولا تلتبس عليهم؛ فيتبين لهم الخبيث من الطيب، والحق من الباطل.

فإذا واجهتم -أيها المؤمنون- المحاربين المقاتلين من الكفار فاقتلوه، حتى إذا أكثرتم القتل فغلبتم الكفار وقهرتموهم، فقتلوا من أسرتهم منهم تقييداً شديداً، وأربطوهم رباطاً قوياً، فإما أن تموتوا على أسرى الكفار بإطلاقهم من الأسر مجاناً بلا عوض، وإما أن تأخذوا منهم عوضاً؛ كدفعهم مالاً، أو إخراجهم أسارى مسلمين لديهم؛ فأنتم مخيرون -أيها المسلمون- فيهم بعد انقضاء الحرب، استمروا على فعل هذا الذي أمرتم به من قتل الكفار المحاربين وأسروهم إلى أن تنتهي الحرب، ويضع المحاربون السلاح، أمركم الله -أيها المؤمنون- بما سبق ذكره من جهاد الكفار المحاربين، والحال أنه لو شاء الله سبحانه لانتقم من الكفار بعقوبة منه لهم عاجلة، دون أن يكلفكم بقتالهم، ولكن شرع الله الجهاد ليختبركم -أيها المؤمنون- بالكافرين؛ فيتبين المجاهدون منكم والصابرون، ويثيبهم، ويختار منكم الشهداء، ويختبر الكافرين بكم؛ فبعاقب بأيديكم من يشاء منهم، ويخزيهم، والذين جاهدوا الكفار فقتلوا واستشهدوا في سبيل الله؛ لن يحبط الله أعمالهم، بل يتقبلها منهم، ويثيبهم عليها

سيهديهم الله في الدنيا والآخرة إلى ما ينفعهم ويصلح شأنهم وحالهم.

وَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَيُبَيِّنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهَا طَرِيقَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ مِنْهَا، فَيَهْتَدِي إِلَيْهِ بِلا اسْتِدْلَالٍ، وَيَعْرِفُ مَنْزِلَهُ بِلا إِشْكَالٍ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا دِينَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ، وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ عِنْدَ قِتَالِ الْكُفَّارِ؛ فَلَا تَخَافُونَ مِنْهُمْ، وَلَا تَفِرُّونَ مِنْهُمْ كَثُرَ عَدَدُهُمْ وَقَوِيَتْ عُذَّتُهُمْ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ فَخِزْيًا لَهُمْ وَشِقَاءً وَهَلَاكًا، وَعِثَارًا وَسُقُوطًا لَا قِيَامَ بَعْدَهُ، وَجَعَلَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ بَاطِلَةً لَا نَفْعَ فِيهَا.

ذَلِكَ الْإِثْعَاسُ لِلْكَافِرِينَ وَإِضْلَالُ أَعْمَالِهِمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَرِهُوا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ، فَأَبْغَضُوهُ وَلَمْ يَقْبَلُوهُ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ؛ فَأَبْطَلَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ، فَلَا يَنْتَفِعُونَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا، وَلَا فِي الْآخِرَةِ!

أَفَلَمْ يُسَافِرِ الْمُشْرِكُونَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ نَهَايَةُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ؟ أَهَلَّاكَ اللَّهُ مَنَازِلَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَأَبَادَهُمْ وَاسْتَأْصَلَهُمْ، وَلَغَيْرَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ أَمْثَالُ تِلْكَ الْعَاقِبَةِ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْدَّمَارِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا.

ذَلِكَ النَّصْرُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْإِهْلَاكُ لِلْكَافِرِينَ بِسَبَبِ أَنَّ اللَّهَ يَتَوَلَّى الَّذِينَ آمَنُوا فَيَنْصُرُهُمْ، وَبِسَبَبِ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا وَلِيَّ لَهُمْ يَتَوَلَّاهُمْ فَيَنْصُرُهُمْ.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ جَنَّاتٍ تَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ يَتَمَتَّعُونَ فِي الدُّنْيَا بِشَهَوَاتِهَا وَمُلَذَّاتِهَا، وَيَأْكُلُونَ فِيهَا كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ الَّتِي لَا هَمَّ لَهَا سِوَى ذَلِكَ، وَسَتَكُونُ النَّارُ مَسْكَنًا لَهُمْ يَصِيرُونَ إِلَيْهِ، وَيَسْتَقَرُّونَ فِيهِ؛ فَتُنْسِيهِمْ كُلَّ نَعِيمٍ كَانُوا فِيهِ!

وما أَكْثَرَ الْفُرَى الَّتِي كَانَ أَهْلُهَا -يَا مُحَمَّدُ- أَكْثَرَ قُوَّةً وَعَدَدًا
وَمَالًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ أَخْرَجوكَ مِنْهَا؛ فَأَهْلَكَهُمَ اللَّهُ بِالْعَذَابِ،
وَأَبَادَهُمْ حِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَاصِرٌ يَنْصُرُهُمْ، فِيمَنْعَ
عَنهم عَذَابَ اللَّهِ حِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ!

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَعِلِمٌ وَمَعْرِفَةٌ بِالْحَقِّ، فَهُوَ
يُؤْمِنُ بِهِ وَيَتَّبِعُهُ، وَيَعْرِفُ سُوءَ عَمَلِهِ وَهُوَاهُ وَيَجْتَنِبُهُ؛ كَالَّذِي
حَسِنَ لَهُ قَبِيحُ أَعْمَالِهِ مِنْ شِرْكَ أَوْ مَعْصِيَةٍ، فَاتَّبَعَ مَا دَعَتْهُ إِلَيْهِ
نَفْسُهُ مِنَ الضَّلَالَاتِ بِلا حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ؟ لَا يَسْتَوِيَانِ!

صِفَةُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ بِهَا الْمُتَّقِينَ أَنَّ فِيهَا أَنْهَارًا مِنْ مَاءٍ
عَذْبٍ صَافٍ، غَيْرِ مُتَغَيِّرِ الرِّيحِ أَوْ الطَّعْمِ أَوْ اللَّوْنِ، وَفِي الْجَنَّةِ
أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ بِحُمُوضَةٍ أَوْ غَيْرِهَا، وَفِيهَا أَنْهَارٌ
مِنْ خَمْرٍ طَيِّبَةٍ يَلْتَذُّ بِهَا الشَّارِبُونَ، بِلا صُدَاعٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ
الْأَفَاتِ، وَفِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي غَايَةِ الصَّفَاءِ، خَالِيًا
مِنْ سَائِرِ الشَّوَائِبِ وَالْأَوْسَاحِ، وَلِلْمُتَّقِينَ فِي الْجَنَّةِ ثَمَرَاتٌ مِنْ
جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ، وَلَهُمْ مَعَ ذَلِكَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ مَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ
لِذُنُوبِهِمْ؛ فَيَتَجَاوَزُ عَنْهَا، وَلَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا، وَيَسْتُرُهَا، فَهَلْ
يَكُونُ مَنْ فِي الْجَنَّةِ -الَّتِي تِلْكَ صِفَتُهَا- كَمَنْ هُوَ مَآكُثٌ فِي النَّارِ
أَبَدًا، وَسُقِيَ فِيهَا مَاءٌ قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ فِي شِدَّةِ حَرَارَتِهِ، فَقَطَّعَ مَا فِي
بَطْنِهِ مِنْ أَمْعَاءٍ؟!

وَمِنَ الْكُفَّارِ قَوْمٌ يَسْتَمِعُونَ إِلَى تِلَاوَتِكَ الْقُرْآنِ -يَا مُحَمَّدُ-، أَوْ
إِلَى حَدِيثِكَ فِي خُطْبِ الْجُمُعَةِ أَوْ غَيْرِهَا، وَهُمْ الْمَنَافِقُونَ، فَإِذَا
خَرَجَ أُولَئِكَ الْمَنَافِقُونَ مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِمَنْ حَضَرَ مَجْلِسَكَ مِنْ
أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الصَّحَابَةِ: مَاذَا قَالَ مُحَمَّدٌ مُنْذُ وَقْتٍ قَرِيبٍ؟! أُولَئِكَ
هُمْ الَّذِينَ حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ الْحَقَّ، وَلَا يَفْهَمُونَهُ

فَهُمَّا يَتَنَفَّعُونَ بِهِ، تَرَكَوا الْحَقَّ، وَاتَّبَعُوا مَا دَعَتْهُمْ إِلَيْهِ أَنْفُسُهُمْ مِنَ الْبَاطِلِ وَالضَّلَالَاتِ.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْحَقِّ وَاتَّبَعُوهُ زَادَهُمْ مَا سَمِعُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَكَلَامِ النَّبِيِّ إِيمَانًا وَعِلْمًا، وَعَمَلًا بِالْحَقِّ وَثَبَاتًا عَلَيْهِ، وَأَعْطَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ فِي الدُّنْيَا نِقْمَهُمْ إِيَّاهُ، بِتَوْفِيقِهِمُ لِلْعَمَلِ بِمَا أُمِرُوا بِهِ، وَالْإِنْتِهَاءَ عَمَّا نُهِوا عَنْهُ.

فَهَلْ يَنْتَظِرُ الْمُنَافِقُونَ إِلَّا مَجِيءَ الْقِيَامَةِ فَجَاءَهُ مِنْ غَيْرِ شُعُورٍ بِهَا، وَلَا اسْتِعْدَادٍ لَهَا؟! فَقَدْ جَاءَتْهُمْ مُقَدِّمَاتُ الْقِيَامَةِ، وَعَلَامَاتُ قُرْبِهَا، فَمِنْ أَيْنَ لَهُمُ الْإِنْتِفَاعُ بِالتَّذْكَرِ وَالنَّدَمِ وَالتَّوْبَةِ إِذَا جَاءَتْهُمْ الْقِيَامَةُ، وَقَدْ فَاتَ وَقْتُ الْإِيمَانِ، وَأُغْلِقَ بَابُ التَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ؟!

فَاعْلَمْ - يَا مُحَمَّدُ - أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي لَا تَجُوزُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ، وَاطْلُبْ - يَا مُحَمَّدُ - مِنْ رَبِّكَ مَغْفِرَةَ ذُنُوبِكَ، وَذُنُوبَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمَّتِكَ ذُكُورًا وَإِنَاثًا، وَاللَّهُ يَعْلَمُ تَصَرُّفَكُمْ وَحَرَكَاتَكُمْ، وَيَعْلَمُ مَوْضِعَ سُكُونِكُمْ وَقَرَارِكُمْ لِلرَّاحَةِ.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا: هَلَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ سُورَةً؛ اسْتِثْنَاءً مِنْهُمْ لِإِنْزُولِ الْوَحْيِ، وَجَرِصًا مِنْهُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا فِيهِ، فَإِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُورَةً مُحْكَمَةً، وَأَوْجَبَ فِيهَا قِتَالَ الْكُفَّارِ؛ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضُ الشُّكِّ وَالنِّفَاقِ - يَا مُحَمَّدُ - يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِتَحْدِيقٍ شَدِيدٍ، كَنَظَرِ الْمُحْتَضَرِّ الَّذِي شَخَّصَ بَصَرَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ فَلَا يَظُرُّهُ؛ وَذَلِكَ لِجُبْنِهِمْ وَخَوْفِهِمْ وَكَرَاهِيَّتِهِمْ لِلْجِهَادِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ مُحَذِّرًا وَمُهَيِّدًا لَهُمْ: فَأُولَئِكَ لَهُمْ.

لو أطاعونا، وقالوا قولاً معروفاً؛ كان أمثلاً وأحسنَ، فلو أن
المنافقين إذا وَجِبَ الْقِتَالُ وَحْضَرُ وَقْتُهُ، صَدَقُوا اللَّهَ فِي إيمانِهِم
وجهادِهِم؛ لكانَ صِدْقُهُمْ خَيْرًا لَهُم في دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَاهُمْ.
فهل يُتَوَقَّعُ مِنْكُمْ وَتُنتَظَرُ -إنْ أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَتَرَكْتُمْ
الْجِهَادَ- إِلَّا الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ -بالكفر والمعاصي وسفكِ
الدِّمَاءِ-، وَقَطِيعَةُ الْأَرْحَامِ؟!

أُولَئِكَ الْمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ الْمُقْطَعُونَ لِأَرْحَامِهِمْ هُم الَّذِينَ
طَرَدَهُمُ اللَّهُ، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، فَسَلَبَهُمُ اللَّهُ الْقُدْرَةَ عَلَى سَمَاعِ
الْحَقِّ سَمَاعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَسَلَبَهُمُ اللَّهُ الْقُدْرَةَ عَلَى رُؤْيَةِ الْحَقِّ
عَلَى وَجْهِ يَنْتَفِعُونَ بِهِ.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُ الْقُرْآنَ هَؤُلَاءِ الْمَعْرُضُونَ، وَيَتَفَهَّمُونَهُ، وَيَتَأَمَّلُونَهُ
حَقَّ التَّأَمُّلِ؟ بَلْ أَقْفَلَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ، فَلَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى أَنْ يَعْقِلُوا بِهَا،
فَهِى مُطَبَّقَةٌ لَا يَخْلُصُ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ مَعَانِيهِ.

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ فَارَقُوا الْإِيمَانَ، وَرَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ مِنْ
بَعْدِ مَا عَرَفُوا الْحَقَّ، فَأَثَرُوا الضَّلَالَ عَلَى الْهُدَى: إِنَّمَا وَقَعَ مِنْهُمْ
ذَلِكَ؛ بِسَبَبِ تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ لَهُمُ الْإِرْتِدَادَ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَلَأنَّ اللَّهَ
مَدَّ لِلْمُنَافِقِينَ فِي أَجَالِهِمْ، وَأَمَلَهُمْ، وَلَمْ يُعَجِّلْ عُقُوبَتَهُمْ، فَاعْتَرَوْا.
ذَلِكَ النَّسْوِيلُ وَالْإِمْلَاءُ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ قَدْ وَقَعَ؛ بِسَبَبِ
قَوْلِ الْمُنَافِقِينَ لِلْكَفَّارِ الَّذِينَ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْقُرْآنِ:
سُطِّيعُكُمْ وَتَتَّبِعْ أَهْوَاءَكُمْ فِي بَعْضِ مَا كَرِهْتُمُوهُ مِنَ الْوَحْيِ
الْمُنَزَّلِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُخْفِيهِ الْمُنَافِقُونَ وَالْكَافِرُونَ، وَيُسِيرُوهُ
بَيْنَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ بِهِ، وَمَعْصِيَةِ رَسُولِهِ.

فكيف يكونُ حالُ أولئك المنافقين إذا جاءَهمُ الملائكةُ لِقَبْضِ
أرواحِهِمْ، فَأَخَذُوا يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَعْجَازَهُمْ؟

ذلك الضَرْبُ لِلْمُنَافِقِينَ عِنْدَ مَوْتِهِمْ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ اتِّبَاعِهِمْ مَا
 أَسْخَطَ اللَّهَ؛ بِالْكَفْرِ أَوْ الْعِصْيَانِ، وَمِنْ ذَلِكَ طَاعَتُهُمُ الشَّيْطَانَ،
 وَمُؤَالَاةُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ، وَبِسَبَبِ أَنَّ
 الْمُنَافِقِينَ كَرَهُوا مَا يُرْضِي اللَّهَ عَنْهُمْ، كَالْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ، وَلَمْ
 يَكُنْ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِيمَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ، فَأَبْطَلَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَأَذْهَبَهَا؛ فَلَا
 نَفْعَ فِيهَا.

بَلْ أَحْسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضُ الشَّكِّ وَالنَّفَاقِ أَنَّ اللَّهَ لَنْ
 يُظْهَرَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ أَحْقَادٍ وَعَدَاوَةٍ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ؟!
 وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَ الْمُنَافِقِينَ -يَا مُحَمَّدٌ- بِأَشْخَاصِهِمْ
 وَأَعْيَانِهِمْ، فَتَعْرِفُهُمْ بَعَلَامَاتِهِمُ الظَّاهِرَةَ فِي وُجُوهِهِمْ، وَأَقْسِمُ -يَا
 مُحَمَّدٌ- لَتَعْرِفَنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي فَحْوَى كَلَامِهِمْ، وَمَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ
 مِنْ أَقْوَالٍ تَدُلُّ عَلَى مَقَاصِدِهِمُ السَّيِّئَةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ، لَا
 يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، وَسُجُوزِكُمْ عَلَيْهَا.
 وَأَقْسِمُ لَنُخْتَبِرَنَّ إِيْمَانَكُمْ وَصَبْرَكُمْ، فَنَأْمُرُكُمْ بِالْجِهَادِ حَتَّى نَعْلَمَ
 الْمَجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى أَدَاءِ مَا فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى،
 وَتَحْمُلِ الْبَلَاءِ -عَلِمَ شَهَادَةِ وَوُجُودِ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ-،
 وَنُخْتَبِرُكُمْ اخْتِبَارًا يَكْشِفُ أَحْوَالَكُمْ وَضَمَائِرَكُمْ، وَيُظْهِرُ حَسَنَتَهَا
 وَقَبِيحَهَا.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا النَّاسَ عَنِ دِينِ اللَّهِ، وَخَالَفُوا رَسُولَهُ
 مُحَمَّدًا؛ عِنَادًا مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، وَأَنَّ
 الْإِسْلَامَ هُوَ دِينُهُ صِدْقًا: لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا بِذَلِكَ؛ فَهُوَ غَنِيٌّ
 عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ، وَسَيَنْصُرُ اللَّهُ رَسُولَهُ، وَيُظْهِرُ
 دِينَهُ، وَيُعْلِي كَلِمَتَهُ، وَسَيُبْطِلُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ؛ فَلَا يَنَالُونَ مِنْهَا نَفْعًا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ، بَامْتِثَالِ
الْأَوَامِرِ، واجْتَنَابِ النَّوَاهِي، بِإِخْلَاصٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمُتَابَعَةٍ
لِشَّرْعِهِ، وَلَا تُبْطِلُوا -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- أَعْمَالَكُمْ الصَّالِحَةَ،
وَتُذْهِبُوهَا بِالشِّرْكِ، أَوِ الرَّدَّةِ عَنِ الْإِسْلَامِ، أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُحْبِطُ
الْأَعْمَالَ، وَيُذْهِبُ نَفْعَهَا وَثَوَابَهَا.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا النَّاسَ عَنِ دِينِ اللَّهِ، ثُمَّ مَاتُوا عَلَى
كُفْرِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ؛ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُمْ.

فَلَا تَضَعُوهَا -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- عَنِ قِتَالِ الْكَافِرِينَ، وَتَبَدُّوْا
بَدَعُوْتِهِمْ إِلَى الصُّلْحِ وَالْمُسَالَمَةِ، وَالْحَالِ أَنَّكُمْ الْعَالُونَ عَلَيْهِمْ،
الْقَاهِرُونَ الْغَالِبُونَ لَهُمْ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ، فَيَحْفَظْكُمْ وَيُعِيْنَكُمْ،
وَيَنْصُرْكُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَلَنْ يَنْقُصَكُمْ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ ثَوَابِ
أَعْمَالِكُمْ، أَوْ يُحْبِطَهَا وَيُبْطِلَهَا.

إِنَّمَا حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَنَّهَا لَعِبٌ لَا فَايْدَةَ مِنْهُ، وَلَهُوَ يَتَلَهَّى
النَّاسُ بِهِ؛ فَلَا تَضَعُوهَا عَنِ الْجِهَادِ بِسَبَبِهَا، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا
اللَّهَ بَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْقِيَامُ بِجِهَادِ
أَعْدَائِهِ؛ يُعْطِيَكُمْ ثَوَابَ إِيْمَانِكُمْ وَتَقْوَاكُمْ بِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ لَعِبِ
الدُّنْيَا وَلَهْوِهَا، وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ.

إِنْ يَسْأَلْكُمْ اللَّهُ أَمْوَالَكُمْ، وَيُجْهِدْكُمْ بِمَسَالَتِهَا، وَيُلِحَّ عَلَيْكُمْ؛
تَمْتَنِعُوا مِنْ إِخْرَاجِهَا بُخْلًا بِهَا، وَيُظْهِرِ اللَّهُ حَيْثُ نَزَّ مَا فِي بَوَاطِنِكُمْ
مِنْ أَحْقَادٍ.

إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ فِي جِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَنُصْرَةِ
دِينِهِ؛ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ بِمَالِهِ فَلَا يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ
تَعَالَى، وَمَنْ يَبْخُلُ بِمَالِهِ فَلَا يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّمَا يَحْرُمُ نَفْسَهُ
مِنَ الثَّوَابِ وَالْخَيْرِ الْجَزِيلِ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ عَنِ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَأَنْتُمْ

الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ دَائِمًا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ؛ فَلَا حَاجَةَ لَهُ إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا أَمَرَكُمُ بِالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِهِ؛ لِيَعُودَ نَفْعُ ذَلِكَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ تُعْرَضُوا -أَيُّهَا النَّاسُ- عَمَّا أَمَرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، يَجِئُ بِقَوْمٍ غَيْرِكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ دِينِ اللَّهِ، وَالْبُخْلِ بِالْأَمْوَالِ، بَلْ يَكُونُونَ أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ.

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ -يَا مُحَمَّدٌ- بَصْلِحِ الْحُدَيْبِيَّةِ فَتْحًا بَيِّنًا ظَاهِرًا، وَحَكَمْنَا وَقَضَيْنَا لَكَ بِهِ قَضَاءً مُحْكَمًا عَظِيمًا يَحْصُلُ بِسَبَبِهِ الْخَيْرُ الْجَزِيلُ، وَيُظْهَرُ بِهِ الْحَقُّ الْمُبِينُ.

كِي نَغْفِرَ لَكَ جَمِيعَ ذُنُوبِكَ، وَلِيُكْمَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِيُرْسِدَكَ اللَّهُ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ لَا اعْوَجَاجَ فِيهِ، بِمَا يَشْرَعُ لَكَ مِنَ الْإِسْلَامِ الْمُوَصَّلِ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ وَجَنَّتِهِ. وَلِيَنْصُرَكَ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِكَ نَصْرًا قَوِيًّا قَاهِرًا تَامًّا مَنِيعًا، بَلَا ذُلٍّ وَلَا ضَعْفٍ.

اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الطَّمَأْنِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَصْحَابِ نَبِيِّهِ، فَسَكَنَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى الْحَقِّ حِينَ مَنَعَهُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ؛ فَلَمْ تَضْطَرْبْ نُفُوسُهُمْ، لِيَزْدَادُوا بِذَلِكَ إِيمَانًا فَوْقَ إِيمَانِهِمُ السَّابِقِ مِنْ قَبْلِ صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَغَيْرِهِمْ، يَنْتَقِمُ بِهِمْ مِمَّنْ يَشَاءُ مِنْ أَعْدَائِهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُتَّصِفٌ أَرْلًا وَأَبْدًا بِالْعِلْمِ التَّامِّ؛ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَبِالْحِكْمَةِ التَّامَّةِ؛ فَيَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ اللَّائِقِ بِهِ.

لِيَدْخُلَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَأَشْجَارُهَا، وَهُمْ مَأْكُوثُونَ فِيهَا أَبَدًا، وَلِيَمْحُوَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ذُنُوبَهُمْ، فَلَا يُؤَاخِذُهُمْ بِهَا، وَكَانَ ذَلِكَ

الجزاء عند الله فوزًا عظيمًا، فيظفرون بكلِّ خيرٍ، وينجُونَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ.

وليعَذِّبَ الله المنافقينَ والمنافقاتِ، والمُشْرِكِينَ والمُشْرِكَاتِ؛ فِي الدُّنْيَا، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَنْصُرَ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَأَنَّهُ سَيُسْلِمُهُمْ لِلْقَتْلِ، وَأَنَّهُ لَنْ يُظْهَرَ دِينُهُ وَكَلِمَتُهُ عَلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ؛ فَيَنْسُبُونَ إِلَى اللَّهِ مَا لَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَقَضَائِهِ، فَعَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنًّا سَوْءًا: دَائِرَةُ الْعَذَابِ وَالشُّرُورِ وَالْمَسَاوِيِّ وَالْمَصَائِبِ، تَدُورُ عَلَيْهِمْ وَتُحِيطُ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، وَأَبْعَدَهُمُ اللَّهُ وَطَرَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَهَيَّا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَدْخُلُونَهَا فِي الْآخِرَةِ، وَسَاءَتْ جَهَنَّمُ مَنْزِلًا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَغَيْرِهِمْ، يَنْتَقِمُ بِهِمْ مِمَّنْ يَشَاءُ مِنْ أَعْدَائِهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُتَّصِفٌ أَزَلًا وَأَبَدًا بِالْعِزَّةِ الْكَامِلَةِ؛ فَهُوَ الْقَاهِرُ الْغَالِبُ لِكُلِّ شَيْءٍ، لَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ، وَلَا يَمْنَعُهُ مِمَّا أَرَادَهُ أَحَدٌ، وَهُوَ الْمُتَّصِفُ بِالْحِكْمَةِ التَّامَّةِ؛ فَيَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ اللَّائِقِ بِهِ.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ -يَا مُحَمَّدُ- شَاهِدًا وَمِنْ ذَلِكَ شَهَادَتُهُ عَلَى أُمَّتِهِ، وَمُبَشِّرًا بِالْخَيْرِ وَالثَّوَابِ لِمَنْ أَطَاعَكَ، وَمُنْذِرًا بِالشَّرِّ وَالْعَذَابِ لِمَنْ خَالَفَكَ.

أَرْسَلْنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا؛ لَتُؤْمِنُوا -أَنْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ- بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلِتُؤَيِّدُوا رَسُولَهُ وَتَنْصُرُوهُ، وَتُعْظِمُوهُ وَتُحِلُّوهُ، وَلِتُسَبِّحُوا اللَّهَ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ.

إِنَّ أَصْحَابَكَ -يَا مُحَمَّدُ- الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى الْآلِ يَفِرُّوا عِنْدَ لِقَاءِ الْكُفَّارِ: إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِي أَوْلَئِكَ الْمُبَايِعِينَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِهِ وَقَتَ بَيْعَتِهِ، فَمَنْ نَقَضَ بَيْعَتَهُ فَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ بِذَلِكَ؛ لَا سِتْحَاقَاقَ الْعِقَابِ، وَجَرَمَانَ نَفْسِهِ مِنَ الثَّوَابِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْبَيْعَةِ؛ مِنَ الصَّبْرِ عِنْدَ قِتَالِ الْكُفَّارِ، وَنُصْرَةِ الرَّسُولِ: فَسَيُؤْتِيهِ اللَّهُ ثَوَابًا جَزِيلًا عَلَى وَفَائِهِ، بَوَعْدٍ لَا خُلْفَ فِيهِ.

سَيَقُولُ لَكَ -يَا مُحَمَّدُ- أَهْلُ الْبَوَادِي السَّاكِنُونَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، الَّذِينَ خَلَفَهُمُ اللَّهُ فِي أَهَالِيهِمْ عَنِ السَّفَرِ مَعَكَ إِلَى مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، إِذَا عَانَبْتَهُمْ عَلَى تَخَلُّفِهِمْ، وَقَدْ أَمَرْتَهُمْ بِالْخُرُوجِ مَعَكَ: شَعَلْنَا أَمْوَالَنَا مِنَ الْإِبِلِ أَوْ غَيْرِهَا، وَأَهْلَوْنَا مِنَ النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ عَنْ الْخُرُوجِ مَعَكَ؛ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا تَخَلُّفَنَا عَنْكَ! يَقُولُ لَكَ أَوْلَئِكَ الْمُخْلَفُونَ بِالسَّنَتِهِمْ قَوْلًا مُجَرَّدًا لَا يَعْتَقِدُونَهُ بِقُلُوبِهِمْ، فَهُمْ كَاذِبُونَ فِي اعْتِزَارِهِمْ، وَفِي طَلِبِهِمْ لِلِاسْتِغْفَارِ! قُلْ لَهُمْ -يَا مُحَمَّدُ-: لَا أَحَدٌ يَمْلِكُ دَفْعَ الضَّرِّ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ بِكُمْ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ، وَلَا أَحَدٌ يَمْلِكُ مَنَعَ النَّفْعِ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ، لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَظُنُّ أَوْلَئِكَ الْأَعْرَابُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِبَوَاطِنِ أُمُورِهِمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ تَخَلُّفُهُمْ أَوْ غَيْرُهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ.

لَمْ تَتَخَلَّفُوا -أَيُّهَا الْأَعْرَابُ- عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ لِشَعْلِكُمْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ كَمَا زَعَمْتُمْ، كَلَّا! وَإِنَّمَا تَخَلَّفْتُمْ عَنْهُمْ لَظَنِّكُمْ أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ سَيَسْتَأْصِلُونَهُمْ بِالْقَتْلِ، فَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ فِي الْمَدِينَةِ أَبَدًا، وَحَسَنَ الشَّيْطَانُ ذَلِكَ الظَّنَّ فِي قُلُوبِكُمْ، فَحَسَنَ لَكُمْ التَّخَلُّفُ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ،

وَلَنَنْتَنِيكُمْ ظَنًّا سَيِّئًا أَنَّ اللَّهَ لَن يَنْصُرَ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَلَن يَرْجِعَهُمْ سَالِمِينَ، وَلَن يُظْهِرَ الْحَقَّ الْمُبِينَ، وَكُنْتُمْ -أَيُّهَا الْمُخَلَّفُونَ- قَوْمًا فِي غَايَةِ الْهَلَاكِ وَالْكَسَادِ، لَا خَيْرَ فِيكُمْ، وَلَا نَفْعَ يُرْجَى مِنْكُمْ!

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ مُّسْتَحِقٌّ لِلْعِقَابِ، وَقَدْ أَعَدَدْنَا وَهَيَّأْنَا لِلْكَافِرِينَ نَارًا شَدِيدَةَ النَّفْثِ وَالْإِتْقَادِ!

وَاللَّهُ سُلْطَانُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَيَتَصَرَّفُ وَحْدَهُ فِيهِمَا كَمَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ بِمَا يَشَاءُ، يَغْفِرُ بِفَضْلِهِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَيُعَذِّبُ بَعْدْلِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُتَّصِفٌ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ أَرْلًا وَأَبَدًا، فَهُوَ الْغَفُورُ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ؛ فَيَسْتَرْهَا عَلَيْهِمْ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ مُوَآخَذَتِهِمْ بِهَا، وَهُوَ الرَّحِيمُ بِهِمْ؛ فَيُكْرِمُهُمْ، وَيُنْعِمُ عَلَيْهِمْ بِنِعَمِهِ.

سَيَقُولُ الْأَعْرَابُ الَّذِينَ خَلَّفُوا فِي أَهْلِيهِمْ، وَلَمْ يَخْرُجُوا مَعَ الرَّسُولِ إِلَى مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، إِذَا انْطَلَقَتْ -أَيُّهَا الرَّسُولُ- وَأَصْحَابُكَ إِلَى خَيْبَرَ؛ لَتَأْخُذُوا الْمَغَانِمَ الَّتِي وَعَدَكُمْ اللَّهُ بِأَخْذِهَا: دَعُونَا نَتَّبِعْكُمْ إِلَى خَيْبَرَ! يُرِيدُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا بَذَاهِبَهُمْ مَعَكُمْ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِي وَعَدَهُ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَنْ يَجْعَلَ غَنَائِمَ خَيْبَرَ لَهُمْ خَاصَّةً، قُلْ لَهُمْ -يَا مُحَمَّدٌ-: لَنْ تَسِيرُوا مَعَنَا إِلَى خَيْبَرَ، هَكَذَا قَالَ اللَّهُ لَنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَرْجِعَ إِلَيْكُمْ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَتَسْأَلُونَا الْخُرُوجَ مَعَنَا إِلَى خَيْبَرَ: إِنَّ غَنِيمَةَ خَيْبَرَ خَاصَّةٌ بِمَنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَّةَ، وَأَنْتُمْ تَخَلَّفْتُمْ عَنِ الْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ فَلَيْسَ لَكُمْ إِذَنْ حَقٌّ فِي غَنَائِمِ خَيْبَرَ، فَسَيَقُولُ أَوْلَئِكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ حِينَ تَمْنَعُونَهُمْ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَكُمْ إِلَى خَيْبَرَ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ أَنَّهُ قَوْلُ اللَّهِ وَأَمْرُهُ، وَإِنَّمَا مَنَعْنَاهُمْ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَكُمْ؛ لِكَوْنِكُمْ تَحْسُدُونَنَا

على مشاركتكم في الغنائم! وليس الأمر كما زعم الأعراب أنكم منعتموهم من الخروج معكم إلى خيبر حسداً لهم، وإنما هم قوم لا يفهمون ولا يعقلون إلا قليلاً!

قُلْ -يا محمد- للأعراب الذين خلفوا عن المسير معك إلى الحديبية: سئذعون إلى قتال قوم ذوي قوة شديدة في الحرب، ثقاتلونهم، فلا يزال القتال مستمرًا عليهم، أو يدخلون في دينكم من غير حرب ولا قتال، فيكون أحد الأمرين: إمّا المقاتلة، وإمّا الإسلام، لا ثالث لهما، فإن تطيعوا الله -أيها الأعراب- بإجابة الدعوة إلى قتال الكفار الأشداء، يؤتكم الله على الجهاد ثواباً حسناً: الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة، وإن تعصوا الله فغرضوا عن القتال كما تخلفتم من قبل عن الخروج إلى الحديبية، يُعَذِّبُكُمُ اللهُ عَذَابًا مُّؤَلِّمًا مُّوجِعًا.

ليس على الأعمى إثم في تخلفه عن الجهاد مع المؤمنين؛ لعذره بالعمى المانع له من القتال، ولا على الأعرج إثم؛ لعذره بالعرج، ولا على المريض إثم؛ لعذره بالمرض، ومن يطع الله ورسوله يدخله الله في الآخرة جنات تجري الأنهار من تحت أشجارها وقصورها، ومن يعرض عن طاعة الله ورسوله يُعَذِّبُهُ اللهُ عَذَابًا مُّوجِعًا مُّؤَلِّمًا.

لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوا رسوله تحت الشجرة الكائنة في أرض الحديبية، على أن يقاتلوا كفار قريش ولا يفروا، فعلم الله ما في قلوب الصّحابة من الصّدق والوفاء، والطاعة لله ورسوله، فأنزل الله الطمأنينة على قلوبهم، فثبتوا على الدين، وازدادوا يقيناً بالحقّ المبين، وجزاهم الله فتحاً يحصل لهم قريباً.

وَأَتَابَهُمْ غَنَائِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا مِنْ أَمْوَالِ يَهُودِ خَيْبَرَ، وَجَعَلَهَا خَاصَّةً لَهُمْ دُونَ غَيْرِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُتَّصِفٌ أَرْلًا وَأَبْدًا بِالْعِزَّةِ الْكَامِلَةِ؛ فَهُوَ الْقَاهِرُ الْغَالِبُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَتُتَّصِفُ بِالْحِكْمَةِ النَّامَّةِ؛ فَيَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ اللَّائِقِ بِهِ.

وَعَدَّكُمْ اللَّهُ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- مَغَانِمَ أُخْرَى كَثِيرَةً، وَذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْمَغَانِمِ الَّتِي يَأْخُذُهَا الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ خَيْبَرَ فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ لَهُمْ أَخْذَهَا فِيهَا، فَجَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُبَايِعُونَ رَسُولَهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ- غَنَائِمَ خَيْبَرَ تَأْخُذُونَهَا فِي وَقْتٍ قَرِيبٍ بَعْدَ رُجُوعِكُمْ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَتَسْتَحْصِلُ لَكُمْ غَنَائِمَ كَثِيرَةً بَعْدَهَا، وَكَفَّ اللَّهُ أَيْدِيَ الْكُفَّارِ عَنْكُمْ؛ فَلَمْ يَنْلُكُمُ سُوءٌ مِنْهُمْ، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَعِبْرَةً لَهُمْ، وَلِيَهْدِيَكُمْ اللَّهُ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- طَرِيقًا فِي الدِّينِ مُسْتَقِيمًا لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ.

وَوَعَدَّكُمْ اللَّهُ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- فَتْحَ بِلَادٍ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَى فَتْحِهَا الْآنَ، قَدْ حَفِظَهَا اللَّهُ لَكُمْ، وَأَعَدَّهَا لَكُمْ، وَمَنْعَهَا عَنْ غَيْرِكُمْ، فَيُيَسِّرُ لَكُمْ فَتْحَهَا بَعْدَ حِينٍ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُتَّصِفٌ أَرْلًا وَأَبْدًا بِالْقُدْرَةِ النَّامَّةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ.

وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ لَانْهَزَمُوا عَنْكُمْ، وَقَرُّوا مِنْكُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ وَيَحْفَظُهُمْ وَيَرْعَاهُمْ، وَلَا نَصِيرًا يَنْصُرُهُمْ وَيُعِينُهُمْ عَلَيْكُمْ؛ فَهُمْ مَخْذُولُونَ مَغْلُوبُونَ.

طَرِيقَةُ اللَّهِ وَعَادَتُهُ الْمَعْهُودَةُ الَّتِي أَجْرَاهَا فِي السَّابِقِينَ، بِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ -مِنْ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ- وَهَزِيمَةِ الْكَافِرِينَ، وَإِزْهَاقِ الْبَاطِلِ، وَإِظْهَارِ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَلَنْ تَجِدَ -يَا مُحَمَّدُ- لِعَادَةِ اللَّهِ الَّتِي سَنَّهَا فِي خَلْقِهِ تَغْيِيرًا.

والله وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِي الْمَشْرِكِينَ عَنْكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَكَفَّ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ، وَأَنْتُمْ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْهَرَكُمْ وَنَصَرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُشْرِكُونَ- بَصِيرًا؛ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، وَسَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

هُؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ، وَصَدُّوكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَهُمْ مَنْ مَنَعَ الْهَدْيَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى مَحَلِّ ذَبْحِهَا فِي مَكَّةَ، وَلَوْلَا رِجَالُ نِسَاءٍ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ إِيْمَانَهُمْ فِي مَكَّةَ، مِمَّنْ لَا تَعْلَمُونَ بِشَأْنِهِمْ؛ لَوْلَا أَنْ تَقْتُلُوهُمْ إِذَا دَخَلْتُمْ مَكَّةَ فَاتِحِينَ، فَيَنَالَكُمْ بِسَبَبِ قَتْلِهِمْ سُوءٌ مِنْ إِيْمٍ أَوْ مَغْرَمٍ أَوْ غَمٍّ أَوْ مَلَامَةٍ- لِأَيِّنَ اللَّهِ لَكُمْ فِي فَتْحِ مَكَّةَ، فَمَنَعَكُمْ اللَّهُ مِنَ قِتَالِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ؛ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلُوهَا فَاتِحِينَ، لَوْ تَمَيَّزَ مَنْ أَمِنَ فِي مَكَّةَ عَنْ كُفَّارِهَا وَتَفَرَّقُوا عَنْهُمْ، لَعَذَّبْنَا أَوْلَئِكَ الْكُفَّارَ بِأَيْدِيكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- عَذَابًا مُؤَلِمًا مُوجِعًا فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ أَوْ غَيْرِهِ.

إِذْ وَضَعَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ فِي قُلُوبِهِمْ أَنْفَقَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَاسْتِكْبَارَهَا وَأَخْلَاقَهَا الشَّنِيعَةَ، فَأَبَوْا أَنْ يُكْتَبَ فِي كِتَابِ الصُّلْحِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَأَنْ يُكْتَبَ فِيهِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَمَنَعُوا الْمُؤْمِنِينَ الْقَادِمِينَ لِلْعُمْرَةِ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ، فَلَمَّا فَعَلَ الْمُشْرِكُونَ مَا فَعَلُوا مِنْ ذَلِكَ، أَنْزَلَ اللَّهُ الطُّمَأْنِينَةَ وَالرِّضَا وَالصَّبْرَ وَالتَّيَبَاتَ عَلَى رَسُولِهِ، وَعَلَى أَصْحَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَزَمَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَأَصْحَابَهُ الْمُؤْمِنِينَ كَلِمَةً لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، الَّتِي يَتَّقُونَ بِهَا سَخَطَهُ وَعَذَابَهُ، فَوَقَّعَهُمْ لَالْتِزَامِهَا قَوْلًا وَعَمَلًا، وَالْقِيَامَ بِأَدَائِهِ

حُقوقها، فلا يَنفَكُون عنها أَبَدًا، وكانوا أحقَّ بتلك الكلمة مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وهم أَهلُها مِنْ دُونِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُتَّصِفٌ أَرَلًا وَأَبَدًا بِالْعِلْمِ النَّامِ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ فلا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ عِلْمُهُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ فَضْلَهُ وَإِنْعَامَهُ.

لقد حَقَّقَ اللَّهُ رُؤْيَا رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّتِي رَأَاهَا فِي مَنَامِهِ؛ أَنَّهُ يَدْخُلُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ آمِنِينَ، أُقْسِمُ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَأَنْتُمْ آمِنُونَ مِنْ كُفَّارٍ قَرِيشٍ، وَبَعْضُكُمْ سَيَحِلُّ شَعَرَ رَأْسِهِ، وَبَعْضُكُمْ سَيَقْصِرُهُ، وَلَا يَحْصُلُ لَكُمْ خَوْفٌ، فَعَلِمَ اللَّهُ مَا لَمْ تَعْلَمُوهُ أَنْتُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ فِي مَنَعِكُمْ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَتَأْخِيرِ دُخُولِكُمْ إِلَى الْعَامِ الَّذِي يَلِيهِ، فَقَدَّرَ اللَّهُ لَكُمْ قَبْلَ دُخُولِكُمْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فِي الْعَامِ النَّالِي فَتَحًا قَرِيبًا، وَهُوَ صَلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ. اللَّهُ هُوَ الَّذِي بَعَثَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا بِالْعِلْمِ النَّافِعِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى بَيَانِ الْحَقِّ، وَبَعَثَهُ بِدِينِ الْإِسْلَامِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَشَرَائِعِ الدِّينِ الْكَامِلَةِ، أَرْسَلَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ لِيُعْلِيَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ الْأُخْرَى، وَيَكْفِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ شَاهِدًا عَلَى أَنَّهُ مُظْهِرٌ دِينَهُ، وَعَلَى أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا بَلَا رَيْبٍ، وَأَصْحَابُ مُحَمَّدٍ الَّذِينَ مَعَهُ يُظْهِرُونَ لِمَنْ خَالَفَ دِينَهُمُ الشَّدَّةَ وَالصَّلَابَةَ، وَلِمَنْ وَاظَفَهُ الرَّحْمَةَ وَالرَّأْفَةَ وَاللِّينَ، تَرَى أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ مُدَاوِمِينَ عَلَى صَلَاتِهِمْ، مُكْثَرِينَ مِنْهَا؛ فَتَرَاهُمْ رَاكِعِينَ وَسَاجِدِينَ، يَطْلُبُونَ أَنْ يَتَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ، فَيَدْخُلُهُمْ جَنَّتُهُ، وَأَنْ يَرْضَى عَنْهُمْ؛ فَهَذَا مَقْصُودُهُمْ، عَلَامَةُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ كَانَتْهُ فِي وُجُوهِهِمْ؛ مِنْ أَثَرِ

سُجُودِهِمْ فِي صَلَاتِهِمْ، هَذَا الَّذِي وُصِفُوا بِهِ هُوَ وَصْفُهُمْ فِي التَّوْرَةِ، وَصِفَتْهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ أَنَّهُمْ كَزَّرَعٍ أُخْرِجَ فِرَاحُهُ، فَنَبَتَتْ فِي جَوَانِبِهِ، فَقَوَّى الزَّرْعُ قَرَحُهُ، فَعَلَّظَ الزَّرْعُ، وَتَنَاهَى طَوْلُهُ، وَبَلَغَ غَايَةَ قُوَّتِهِ، وَقَامَ عَلَى أَصُولِهِ، يَثْبُرُ هَذَا الزَّرْعُ الَّذِي اسْتَغْلَظَ وَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ إِعْجَابَ الَّذِينَ زَرَعُوهُ، إِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَصْحَابَ نَبِيِّهِ بِتِلْكَ الصِّفَةِ، فَكَثَّرَهُمْ وَقَوَّاهُمْ؛ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ حِينَ يَزُونَ كَثَرَتَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ مِنْ أَصْحَابِ نَبِيِّهِ أَنْ يَنَالُوا مَغْفِرَةً لِّذُنُوبِهِمْ، فَيَسْتُرُهَا عَلَيْهِمْ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ مُؤَاخَذَتِهِمْ بِهَا، وَوَعَدَهُمْ أَنْ يَنَالُوا أَجْرًا عَظِيمًا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَعْجَلُوا بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ قَبْلَ أَنْ يَأْمَرَ بِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَكُونُوا تَبَعًا لِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وَاتَّخِذُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ سَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ وَقَايَةً وَحَاجِرًا بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَقُولُوا أَوْ تَفْعَلُوا شَيْئًا لَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ بِهِ اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ ذَلِكَ أَقْوَالُ عِبَادِهِ، عَلَيْهِمْ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ ذَلِكَ أَعْمَالُ عِبَادِهِ وَقُلُوبُهُمْ وَنِيَّاتُهُمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمْ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ نَبِيِّ اللَّهِ مُحَمَّدٍ؛ فَاخْفِضُوا أَصْوَاتَكُمْ، وَخَاطِبُوهُ بِأَدَبٍ وَتَعْظِيمٍ، وَلَا تُتَادِهِ بِاسْمِهِ حِينَ تُخَاطِبُونَهُ كَمَا يُنَادِي بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَكِنْ قُولُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ، مَعَ تَعْظِيمٍ وَإِجْلَالٍ يَلِيقُ بِهِ؛ لِئَلَّا تَبْطُلَ أَعْمَالُكُمْ الصَّالِحَةُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِذَلِكَ.

إِنَّ الَّذِينَ يَخْفِضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ؛ أَدَبًا مَعَهُ وَتَعْظِيمًا لَهُ: هُمُ الَّذِينَ اخْتَبَرَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِالْأَوْامِرِ وَالنَّوَاهِي

والبلاء، فأخلصها وطهرها من كل شر؛ ليكونوا أتقياء يمتثلون
الأوامر، ويجتنبون النواهي؛ حذراً من سخط الله وعذابه، لهم
من الله مغفرة لدنوبهم فيسترها عليهم، ويتجاوز عن مؤاخذتهم
بها، ولهم ثوابٌ منه جزيلٌ.

إن الذين ينادونك من وراء أبواب نساءك -يا محمد- أكثرهم
جاهلون بدين الله وما يجب عليهم من تعظيمك، والتأدب معك.
ولو أنهم انتظروا خروجك من بيتك من تلقاء نفسك، ولم
ينادوك من وراء حُجراتك تعظيماً لك؛ لكان خيراً وأصلح لهم
في دينهم ودنياهم وآخرتهم، والله بالغ المغفرة لدنوب عباده،
فيسترها عليهم ويتجاوز عن مؤاخذتهم بها، وهو بالغ الرحمة
بهم.

يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم أي فاسقٍ كان بأي خبر، فتمهلوا
وتوقفوا عن قبول خبره، حتى تتيقنوا منه، فتتبينوا صدقه أو
كذبه، وتظهر لكم الحقيقة؛ لئلا تُصيبوا -خطأً وجهلاً منكم- قوماً
بما يؤذيهم بسبب تصديقكم الفاسق في خبره الكاذب، فتندموا -
أيها المؤمنون- على إصابتكم القوم البراء بأذى وضرر؛ بسبب
تعجلكم في قبول خبر الفاسق، وترككم التبين والتثبت.

واعلموا -يا أصحاب النبي- أن رسول الله بين أظهركم، لو
أنه يعمل بآرائكم في كثير من الأمور، لوقعنكم في مشقة وشدة،
ولكن الله هو الذي حبب إليكم الإيمان، فآثرتموه ورضيتموه،
وحسنه في قلوبكم؛ فهو وحده من وفقكم إليه، وحببه إلى
نفوسكم، وبغض إليكم الكفر به وبرسوله، والخروج عن
طاعتهما، وارتكاب المعاصي، أولئك الموصوفون بما ذكرهم
السالكون طريق الحق، المستقيمون عليه، الموفقون للصواب.

فَعَلَ اللَّهُ بِهِمْ ذَلِكَ تَفَضُّلاً مِنْهُ عَلَيْهِمْ، وَنِعْمَةً أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ، مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنْهُمْ وَلَا قُوَّةٍ، وَاللَّهُ بِالْعِلْمِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ ذَلِكَ عِلْمُهُ التَّائُمُّ بِالْمُحْسِنِينَ مِنَ الْمُسِيئِينَ، وَمَنْ هُمْ أَهْلُ لَفْظِهِ وَنِعْمَتِهِ، وَهُوَ بِالْعِزِّ وَالْحِكْمَةِ؛ فَيَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ اللَّائِقِ بِهِ.

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ تَقَاتَلَا فِيمَا بَيْنَهُمَا، فَاسْعَوْا -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- إِلَى الْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمَا، فَإِنْ أَبَتْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ الْإِجَابَةَ إِلَى الصُّلْحِ وَأَجَابَتْ الْأُخْرَى، فَقَاتِلُوا الطَّائِفَةَ الْمُعْتَدِيَةَ الْمُقَاتِلَةَ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى شَرْعِ اللَّهِ، وَتَسْمَعَ لِلْحَقِّ وَتُطِيعَهُ، فَإِنْ رَجَعَتِ الطَّائِفَةُ الْبَاغِيَةُ إِلَى الرِّضَا بِحُكْمِ اللَّهِ، فَأُصْلِحُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الطَّائِفَةِ الْأُخْرَى بِالْعَدْلِ، وَاحْكُمُوا بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُتَقَاتِلَتَيْنِ بِالْحَقِّ وَالْإِنصَافِ بِلَا جَوْرِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَاكِمِينَ بِالْحَقِّ وَالْإِنصَافِ.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فِي الدِّينِ، يَحِبُّ عَلَيْهِمُ التَّوَادُّدُ وَالتَّنَاصُرُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَأُصْلِحُوا بَيْنَ كُلِّمَا الطَّائِفَتَيْنِ الْمُؤْمِنَتَيْنِ إِذَا اقْتَتَلَتَا، بِحُكْمِهِمَا عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ سَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ وَقَايَةً وَحَاجِزًا -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- بِامْتِثَالِ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى عَنْهُ؛ لَعَلَّكُمْ تَتَأَلَوْنَ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْتَهْزِئْ قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ مِنْ قَوْمٍ آخَرِينَ مُؤْمِنِينَ، عَسَى أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَهْزَأُ بِهِمْ خَيْرًا مِنَ الْهَازِئِينَ، وَأَعْظَمَ قَدْرًا مِنْهُمْ، وَلَا يَسْتَهْزِئُ نِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ مِنْ نِسَاءِ أُخْرِيَّاتٍ مُؤْمِنَاتٍ، عَسَى أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَهْزَأُ بِهِنَّ خَيْرًا مِنَ الْمُسْتَهْزَآتِ، وَأَعْظَمَ قَدْرًا مِنْهُنَّ، وَلَا يَطْعُنُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَيَعِيبَهُ وَيَقْدَحَ فِيهِ، وَلَا يُنَادِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا -أَيُّهَا

المؤمنون- بالأسماء والصِّفَاتِ القَبِيحَةِ الَّتِي يَكْرَهُهَا الْمُنَادَى
بِهَا، بِئْسَ الْأَسْمُ الَّذِي تَنَالُونَهُ اسْمُ الْفَسُوقِ بَعْدَ اتِّصَافِكُمْ بِالْإِيمَانِ،
وَمَنْ لَمْ يَنْبُ مِنَ السُّخْرِيَةِ بِإِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ لَمْزِهِمْ، أَوْ
مُنَازَبَتِهِمْ بِالْأَلْقَابِ؛ فَإِنَّهُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ لَأَنْفُسِهِمْ بِتَعْرِضِهَا
لِعِقَابِ اللَّهِ، وَالظَّالِمُونَ لغيرهم بالاعتداء عليهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ، فَتَنَّهُمُوا النَّاسَ
بِالسُّوءِ ظَنًّا مِنْكُمْ بِلا بُرْهَانٍ، إِنَّ ظَنَّ الْمُؤْمِنِ بِغَيْرِهِ السُّوءَ مِنْ
غَيْرِ دَلِيلٍ ذَنْبٌ، وَلَا تَتَّبِعُوا -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- عُيُوبَ النَّاسِ
وَتَتَّبِعُوا عَنْهَا، بَلِ اثْرُكُوهُمْ، وَعَامِلُوهُمْ بِحَسَبِ ظَوَاهِرِهِمْ، وَلَا
يَذْكُرْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي حَالِ غَيْبَتِهِ بِمَا يَكْرَهُ سَمَاعُهُ مِنْ عَيْبٍ
وَقَدْحٍ فِيهِ، أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ؟ فَإِنْ كَرِهْتُمْ
ذَلِكَ وَاشْتَمَأَزْتُمْ مِنْهُ -لِحُرْمَتِهِ وَبِشَاعَتِهِ- فَافْكُرُوا كَذَلِكَ غَيْبَةَ
الْمُسْلِمِ، وَاجْعَلُوا بَيْنَكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَبَيْنَ سَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ
وَقَايَةً بِامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَمِنْ ذَلِكَ ظَنُّ السُّوءِ
بِالْمُؤْمِنِ، وَالتَّجَسُّسُ عَلَيْهِ، وَاغْتِيَابُهُ، إِنَّ اللَّهَ يُوفِّقُ عِبَادَهُ لِلتَّوْبَةِ
وَيَقْبَلُهَا مِنْهُمْ، رَحِيمٌ بِهِمْ فَيَدْعُوهُمْ إِلَى مَا يَنْفَعُهُمْ، وَلَا يُؤَاخِذُهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ مِنْهَا.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا بَدَأْنَا خَلْقَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ وَأُمِّكُمْ حَوَاءَ،
وَجَعَلْنَاكُمْ رَاجِعِينَ فِي أَنْسَابِكُمْ إِلَى شُعُوبٍ وَقَبَائِلٍ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ
يَحْصَلَ التَّعَارُفُ بَيْنَكُمْ بِالْإِنْتِسَابِ إِلَيْهَا، لَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَفْخَرَ بِهَا
بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، إِنَّ أَفْضَلَكُمْ وَأَشْرَفَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَكْثَرُكُمْ
تَقْوًى لَهُ بِامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، لَا أَشْرَفُكُمْ نَسَبًا، وَلَا
أَعْظَمُكُمْ عَشِيرَةً، إِنَّ اللَّهَ نُو عِلْمٍ تَامٍ بِعِبَادِهِ، نُو خَبْرَةٍ كَامِلَةٍ

ببَاطِنِهِمْ وَسَرَائِرِهِمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمُ الظَّاهِرَةِ
وَالْبَاطِنَةِ.

قَالَتِ الْأَعْرَابُ -وَهُمْ سُكَّانُ الْبَادِيَةِ مِنَ الْعَرَبِ- لِلنَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا، قُلْ لَهُمْ -يَا مُحَمَّدٌ-: لَمْ تُؤْمِنُوا بَعْدُ إِيْمَانًا
كَامِلًا، فَلَا تَدْعُوا أَنْفُسَكُمْ هَذَا الْمَقَامَ، وَلَكِنْ قُولُوا: دَخَلْنَا فِي
الْإِسْلَامِ، وَاقْتَصِرُوا عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ الْكَامِلُ
وَحَقَائِقُ مَعَانِيهِ بَعْدُ فِي قُلُوبِكُمْ لَكِنَّهُ يَتَوَقَّعُ مِنْكُمْ، وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ لَا يَنْقُصْكُمْ اللَّهُ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِكُمُ الصَّالِحَةِ أَيَّ شَيْءٍ
مِنْهَا، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لِدُنُوبِ عِبَادِهِ، فَيَسْتُرْهَا عَلَيْهِمْ، وَيَتَجَاوَزَ عَنْ
مُؤَاخَذَتِهِمْ بِهَا، وَهُوَ رَحِيمٌ بِهِمْ.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ لَمْ يَشْكُوا
فِي وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَصَدَقَ بُبُوءَ نَبِيِّهِ، وَثَبَّتُوا عَلَى ذَلِكَ، وَلَمْ
يَتَزَلَّزَلُوا، وَهُمْ أَيْضًا مَنْ جَاهَدُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ بِإِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمْ، وَبَذْلِ
أَرْوَاحِهِمْ؛ لِيَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ فِي
إِيْمَانِهِمْ حَقًّا، لَا الَّذِينَ يَدْعُونَ الْإِيْمَانَ مِنْ غَيْرِ تَحْقِيقٍ.

قُلْ -يَا مُحَمَّدٌ- لِلأَعْرَابِ الَّذِينَ ادَّعَوْا الْإِيْمَانَ: أَنْخَبِرُونِ اللَّهَ
بِمَا فِي قُلُوبِكُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ حِينَ قُلْتُمْ: أَمَّا، وَالْحَالُ أَنَّهُ يَعْلَمُ جَمِيعَ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ؟!
وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ حَالُكُمْ، وَلَيْسَ بِحَاجَةٍ لِإِخْبَارٍ، وَاللَّهُ ذُو عِلْمٍ بِكُلِّ
شَيْءٍ، فَاحْذَرُوا أَنْ تَقُولُوا خِلَافَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ.

يَمُنُّ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ عَلَيْكَ -يَا مُحَمَّدٌ- إِسْلَامَهُمْ، فَيَذْكُرُونَهُ
لَكَ ذِكْرًا مِنْ قَدَمٍ لَكَ مَعْرُوفًا، وَأَسْدَى إِلَيْكَ خَيْرًا!، قُلْ لَهُمْ: لَا
تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ؛ فَلَيْسَ لَكُمْ مِنْهُ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ، فَنفَعُ إِسْلَامِكُمْ

يَعُودُ عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا لِلَّهِ الْمِنَّةُ عَلَيْكُمْ بِالتَّوْفِيقِ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي ادِّعَائِكُمْ الْإِيمَانَ.

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كُلَّ مَا غَابَ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ، وَمِنْ ذَلِكَ عِلْمُهُ بِالصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ، وَعِلْمُهُ بِمَا تُخْفِيهِ السَّرَائِرُ وَالضَّمَائِرُ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ، وَاللَّهُ ذُو بَصِيرٍ بِأَعْمَالِكُمْ كُلِّهَا؛ خَيْرُهَا وَشَرُّهَا، ظَاهِرُهَا وَبَاطِنُهَا، وَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا بِمَا تَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ ثَوَابٍ أَوْ عِقَابٍ.

افْتَتَحَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ بِهَذَا الْحَرْفِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمَقْطُوعَةِ الَّتِي تُسْتَفْتَحُ بِهَا كَثِيرٌ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ لِبَيَانِ إِعْجَازِهِ؛ حَيْثُ تُظْهَرُ عَجَزُ الْخَلْقِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ مَرْكَبٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي يَتَحَدَّثُونَ بِهَا، وَأَقْسَمَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، الْوَاسِعِ الْمَعَانِي، الشَّرِيفِ، ذِي الصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ الْكَامِلَةِ.

بَلْ تَعَجَّبُوا وَاسْتَنْكَرُوا مَجِيءَ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ يُحَذِّرُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: إِنَّهُ لَشَيْءٌ مُسْتَعْرَبٌ وَمُسْتَبْعَدٌ أَنْ يَأْتِيَنَا رَسُولٌ مِنَ الْبَشَرِ يُنْذِرُ بِعَذَابٍ بَعْدَ الْمَوْتِ! قَالَ الْمُشْرِكُونَ: أَإِذَا مِتْنَا وَصِرْنَا ثُرَابًا نُبْعَثُ أَحْيَاءً بَعْدَ ذَلِكَ، وَنَرَى مَا وُعِدْنَا مِنَ الْعَذَابِ؟! ذَلِكَ بَعِيدٌ وَقَوْعُهُ، وَمَحَالٌ خُدُوثُهُ! قَدْ عَلِمْنَا مَا تَأْكُلُ الْأَرْضُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْنَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ فَلَا يَظُنُّ الْكَافِرُونَ أَنَّنَا غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى إِحْيَائِهِمْ إِذَا مَاتُوا وَصَارُوا ثُرَابًا، وَعِنْدَنَا كِتَابٌ يَحْوِي كُلَّ شَيْءٍ، وَحَافِظٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ مَحْفُوظٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَمِنَ النَّعْثِ. بَلْ سَارَعُوا إِلَى التَّكْذِيبِ بِالْقُرْآنِ حِينَ جَاءَهُمْ، فَهُمْ فِي أَمْرٍ مُخْتَلِطٍ مُضْطَرِبٍ مُلْتَبِسٍ عَلَيْهِمْ.

أَفَلَمْ يَنْظُرْ هَؤُلَاءِ الْمَكْدِبُونَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي رَفَعَهَا اللَّهُ فَوْقَهُمْ، فَيَتَأَمَّلُوا كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا بِالنُّجُومِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِهَا صُدُوعٌ وَلَا تَشَقُّقَاتٌ، بَلْ هِيَ مَبْنِيَّةٌ بِإِحْكَامٍ بَلَا غُيُوبٍ؟! فَالَّذِي قَدَّرَ عَلَى فِعْلِ ذَلِكَ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ! وَالْأَرْضَ بَسَطْنَا سَطْحَهَا وَجَعَلْنَا فِيهَا جِبَالًا رَاسِيَةً تُثَبِّتُهَا، فَلَا تَضْطَرِبُ وَلَا تَمِيدُ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الزَّرْعِ وَالنَّبَاتِ وَالثَّمَارِ الَّتِي تَسُرُّ النَّاطِرِينَ؛ مِنْ حُسْنِهَا.

فَعَلْنَا ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُبْصِرَ وَيَتَذَكَّرَ كُلُّ عَبْدٍ رَجَّاعٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، مُقْبِلٍ عَلَى طَاعَتِهِ، فَيَسْتَدِلَّ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا وَالتَّفَكُّرِ فِيهَا عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَإِحَاطَتِهِ بِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ.

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً كَثِيرَ الْخَيْرِ وَالتَّفْعِ، فَأَنْبَتْنَا بِسَبَبِهِ بَسَاتِينَ كَثِيرَةً الْأَشْجَارِ، وَأَنْوَاعَ الْحُبُوبِ الَّتِي تُحْصَدُ؛ كَالْبُرِّ وَالذَّرَّةِ، وَالشَّعِيرِ وَالْأُرْزِّ.

وَأَنْبَتْنَا بِمَاءِ الْمَطَرِ النَّخْلَ طَوَالًا، لَهَا طَلْعٌ -وَهُوَ أَوَّلُ مَا يَظْهَرُ مِنْ ثَمَرِهِ، وَهُوَ فِي غِلَافِ الْعُنْقُودِ- مُتْرَاكِبٌ مَصْفُوفٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ.

أَنْبَتْنَا الْجَنَّاتِ وَالْحُبُوبَ وَالنَّخِيلَ؛ رِزْقًا لِلنَّاسِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، وَأَحْيَيْنَا بِمَاءِ الْمَطَرِ بَلَدَةً مُجْدِبَةً لَا زَرْعَ فِيهَا وَلَا نَبْتَ، فَكَمَا أَحْيَيْنَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْيَاءَ بَعْدَ مَوْتِكُمْ.

كَذَّبَتْ قَبْلَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ -الَّذِينَ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا- قَوْمُ نُوحٍ الَّذِينَ كَذَّبُوا نُوحًا، وَأَصْحَابُ الرَّسِّ، وَثَمُودُ الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ صَالِحًا.

وَكَذَّبَتْ قَبْلَ مُشْرِكِي فُرَيْشٍ عَادُ الَّذِينَ كَذَّبُوا هُودًا، وَفِرْعَوْنُ
الَّذِي كَذَّبَ مُوسَى، وَقَوْمُ لُوطٍ الَّذِينَ كَذَّبُوا لُوطًا.
وَكَذَّبَ قَبْلَ مُشْرِكِي فُرَيْشٍ أَصْحَابُ الشَّجَرِ الْمُتَلَفِّ الْمُجْتَمِعِ،
كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ شُعَيْبًا، وَكَذَّبَ قَوْمُ الْمَلِكِ نُبُعَ، كُلُّ أَوْلَئِكَ الْأَمَمِ
الْمَاضِيَةِ كَذَّبُوا الرُّسُلَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ، فَوَجَبَ
وَثَبَتْ عَلَيْهِمْ عَذَابُ اللَّهِ، الَّذِي تَوَعَّدَهُمْ بِهِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِهِ،
وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ.

أَفَعَجَزْنَا عَنْ ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَلَمْ نَكُنْ عَالِمِينَ بِمَا
نَصْنَعُ فِيهِ، وَلَا قَادِرِينَ عَلَيْهِ؟! لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَلَمْ نَعْجَزْ عَنْهُ
وَلَا هُمْ يَشْكُونُ فِي قَدَرَتِنَا عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا هُمْ فِي شَكٍّ وَتَرَدُّدٍ وَحَيْرَةٍ
مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى الْبَعْثِ؛ فَالْتَبَسَ عَلَيْهِمْ إِعَادَةُ اللَّهِ الْأَمْوَاتِ خَلْقًا
جَدِيدًا، مَعَ أَنَّهُ لَا مَحَلَّ لِلْبَسِ فِيهِ؛ فَالْإِعَادَةُ أَهْوَنُ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ!
وَلَقَدْ خَلَقْنَا كُلَّ إِنْسَانٍ وَنَحْنُ نَعْلَمُ مَا تُحَدِّثُهُ بِهِ نَفْسُهُ سِرًّا، فَلَا
يَخْفَى عَلَيْنَا مَا يَخْتَلِجُ فِي قَلْبِهِ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ
الَّذِي فِي عُنُقِهِ.

نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَتَلَقَّى فِيهِ
الْمَلَكَانِ جَمِيعَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ، فَيُحْصِيَانِهَا
عَلَيْهِ: أَحَدُهُمَا ثَابِتٌ عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ ثَابِتٌ عَنْ شِمَالِهِ، لَا
يُفَارِقَانِهِ.

مَا يَتَكَلَّمُ الْإِنْسَانُ بِقَوْلٍ إِلَّا وَعِنْدَهُ مَلَكٌ حَافِظٌ يُرَاقِبُ كَلَامَهُ
لِيَكْتُبَهُ، حَاضِرٌ لَا يُفَارِقُهُ.

وَجَاءَتْ شِدَّةُ الْمَوْتِ وَعَمَرُتُهُ الَّتِي تَغْشَى الْإِنْسَانَ، بِمَا يَكُونُ
بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ، وَسَعَادَةٍ وَشَقَاوَةٍ، وَيُظْهَرُ صِدْقُ

ما أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ، وَذَلِكَ الْمَوْتُ هُوَ مَا كُنْتَ تَمِيلُ
عَنهُ وَتَهْرُبُ مِنْهُ -أَيُّهَا الْإِنْسَانُ- وَقَدْ أَدْرَكَكَ الْآنَ!
وَنَفَخَ الْمَلَكُ فِي الْقَرْنِ لِبَعْثِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا الْيَوْمُ
الَّذِي يَنْفُخُ فِيهِ هُوَ الَّذِي تَوَعَّدَ اللَّهُ الْكَافِرِينَ وَالظَّالِمِينَ فِيهِ
بِالْعَذَابِ.

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهَا سَائِقٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
يَسْأَلُهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَشَهِيدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِمَا عَمَلَتْهُ
فِي الدُّنْيَا.

لَقَدْ كُنْتَ -أَيُّهَا الْإِنْسَانُ- فِي الدُّنْيَا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ، فَلَمْ
تَسْتَعِدَّ لَهُ، فَأَرَأَيْتَ عَنكَ الْغِطَاءَ، وَرَفَعْنَا عَنْكَ الْحِجَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛
فَظَهَرَتْ لَكَ حَقَائِقُ الْآخِرَةِ، فَبَصَرُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي غَايَةِ الْحَدِّ
وَالْقُوَّةِ وَالنُّفُوزِ، فَتَرَى بِهِ مَا كُنْتَ غَافِلًا عَنْهُ فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَ الْمَلَكُ الْمَقْرُونُ بِالْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا لِكِتَابَةِ أَعْمَالِهِ: هَذَا
هُوَ الَّذِي وُكِّلْتُ بِهِ قَدْ أَحْضَرْتُهُ، وَهَذَا عَمَلُهُ الَّذِي أَحْصَيْتُهُ عَلَيْهِ
مُعَدُّ مُحْضَرٌّ، بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اطْرَحَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ كُلَّ كَثِيرِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ
وَبِدِينِهِ، وَأَيَّاتِهِ وَنِعَمِهِ؛ شَدِيدِ الْعِنَادِ لِلْحَقِّ.

كَثِيرِ الْمَنْعِ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَمُعْتَدٍ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ، ظَالِمِ النَّاسِ،
شَاكٍّ فِي وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَمُشَكِّكٍ لِغَيْرِهِ.
الَّذِي أَشْرَكَ بِاللَّهِ، فَعَبَدَ مَعَهُ مَعْبُودًا آخَرَ مِنْ خَلْقِهِ، فَالْقِيَا ذَلِكَ
الْمُتَّصِفَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ فِي عَذَابِ النَّارِ الشَّدِيدِ.

قَالَ الشَّيْطَانُ مُتَبَرِّئًا مِنْ ذَلِكَ الْكَافِرِ الَّذِي اقْتَرَنَ بِهِ فِي الدُّنْيَا:
رَبَّنَا مَا أَوقَعْتُهُ فِيمَا كَانَ فِيهِ مِنْ طُغْيَانٍ، وَلَا أَضَلَلْتُهُ وَلَا أَغْوَيْتُهُ؛

فإنَّه لا سُلْطَانَ لي عليه، ولا حُجَّةَ ولا بُرْهَانَ، وَلَكِنْ كان بَعِيدًا
عن الْحَقِّ باختياره.

قال اللهُ تعالى لأُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ وَفُرَنَائِهِمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ: لا
تَخْتَصِمُوا عَندي وقد سَبَقَ أَنْ أَقَمْتُ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ فِي الدُّنْيَا
بِإِزْالِ الْكُتُبِ، وإِرسالِ الرُّسُلِ، وَبَلْغَمِ وَعَيْدِي لِمَنْ كَفَرَ بي،
وعَصَانِي، وَكَذَّبَ رُسُلِي؛ فلا نِجاةَ لَكُمْ مِنْ جَهَنَّمَ، ولا فائِدةَ فِي
اِختِصامِكُمْ!

لا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَيِّرَ قَوْلِي الَّذِي قُلْتُهُ مِنْ قَبْلُ بِأَنِّي سَأَمْلَأُ
جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ؛ فَالْكَفَّارُ فِي النَّارِ، وَأَهْلُ الْإِيمَانِ فِي
الْجَنَّةِ، وما قَضَيْتُ بِهِ لا بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِ لا مَحَالَةَ، وما أَنَا بِذِي
ظُلْمٍ لِعِبَادِي؛ فلا أَعاقِبُ أَحَدًا بِغَيْرِ ذَنْبِهِ، أو أَزِيدُ فِي سَيِّئَاتِهِ، أو
أَنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِهِ.

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ: هلِ امْتَلَأْتَ كَمَا وَعَدْتُ بِذَلِكَ؟ وَتَقُولُ جَهَنَّمَ
طالِبَةً الْمَزِيدِ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ: هلِ مِنْ زِيادَةٍ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ
تَزَادُ إِلَيَّ؟!

وَقُرْبَتِ الْجَنَّةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا اللَّهَ تَعَالَى بِامْتِثَالِ
أوامِرِهِ، واجْتِنَابِ نواهِيهِ، إِلَى مَوْضِعٍ غَيْرِ بَعِيدٍ عَنْهُمْ، فَيَرَوْنَهَا
قَبْلَ دُخُولِهَا.

هذا الْجَزَاءُ الَّذِي وَعَدْتُمْ بِهِ هُوَ لِكُلِّ كَثِيرِ الرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى، فَيَرْجِعُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ إِلَى طاعَتِهِ، وَمِنْ الْعَفْلَةِ عَنْهُ إِلَى
ذِكْرِهِ؛ كَثِيرِ الْمَحَافَظَةِ عَلَى حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَدَمِ التَّعَدِّي عَلَى
حُدُودِهِ.

مَنْ خَافَ اللَّهَ وَتَرَكَ مَعْصِيَتَهُ فِي سِرِّهِ وَخَلَوْتِهِ، وَجَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَلْبٍ عَاكِفٍ عَلَى مَحَبَّةِ رَبِّهِ، وَطَاعَتِهِ، وَالْخُضُوعِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ، غَيْرَ مُلْتَفِتٍ إِلَى مَا سِوَاهُ.

يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَنْ كَانَتْ تِلْكَ صِفَاتُهُ: ادْخُلُوا هَذِهِ الْجَنَّةَ بِأَمَانٍ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، وَآفَةٍ وَشَرٍّ، ذَلِكَ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يُمْكِنُ فِيهِ فِي الْجَنَّةِ أَبَدًا إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ.

لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ كُلُّ مَا تَشْتَهُيهِ أَنْفُسُهُمْ، فَهُمَا طَلَبُوا مِنْ شَيْءٍ أَحْضَرَ لَهُمْ، وَعِنْدَنَا لَهُمْ ثَوَابٌ زَائِدٌ عَلَى مَا يَشَاوُونَ مِمَّا لَمْ يَخْطُرَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَأَعْظَمُ ذَلِكَ وَأَفْضَلُهُ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ.

وَكثِيرًا مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ؛ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَقْوَى وَأَشَدَّ مِنْهُمْ سَطْوَةً! فَسَارُوا فِي الْأَرْضِ، وَطَافُوا وَتَوَغَّلُوا فِيهَا، وَتَقَلَّبُوا فِي أَسْفَارِهِمْ، وَسَلَكُوا كُلَّ طَرِيقٍ، فَهَلْ صَرَفَهُمْ ذَلِكَ عَنِ الْعَذَابِ، وَأَنْجَاهَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ؟ فَأَنْتُمْ أَيْضًا -يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ- لَا مَفَرَّ لَكُمْ وَلَا مَحِيدَ إِذَا حَلَّ بِكُمْ الْهَلَاكُ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ قُوَّتُكُمْ وَشِدَّتُكُمْ شَيْئًا!

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَتَذْكَيرًا وَمَوْعِظَةً وَعِبْرَةً لِمَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ يَعْقِلُ بِهِ وَيَتَذَبَّرُ، فَيَتَذَكَّرُ وَيَخَافُ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ اسْتَمَعَ لِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنْصَتَ إِلَى آيَاتِهِ إِنْصَاتًا تَامًّا، فَلَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَهُوَ حَاضِرُ الْقَلْبِ غَيْرُ غَافِلٍ وَلَا سَاهٍ.

وَلَقَدْ أَوْجَدْنَا السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخَلْقِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَمَا أَصَابَنَا مِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ أَيُّ تَعَبٍ أَوْ إِعْيَاءٍ؛ لِكَمَالِ الْقُدْرَةِ، وَتِمَامِ الْقُوَّةِ.

فاصْبِرْ -يا مُحَمَّدُ- على ما يَقُولُهُ الْكُفَّارُ مِنَ الْأَدَى وَالسُّوءِ،
وَنَزَّهَ رَبُّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا تَنْزِيهًا مُقْتَرِنًا
بَوَصْفِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ؛ مُحَبَّةً لَهُ وَتَعْظِيمًا، وَصَلَّ لَهُ.
وَمِنْ بَعْضِ أَوْقَاتِ اللَّيْلِ فَسَبِّحِ اللَّهَ تَعَالَى مُنْزَهًا لَهُ عَنْ كُلِّ مَا
لَا يَلِيقُ بِهِ، وَصَلِّ لَهُ، وَسَبِّحْ رَبُّكَ -يا مُحَمَّدُ- عَقَبَ الصَّلَوَاتِ.
وَاسْتَمِعْ -يا مُحَمَّدُ- حِينَ يُنَادِي الْمَلِكُ الْمَوْكَلُ بِالصُّورِ مِنْ
مَوْضِعٍ قَرِيبٍ.

وَذَلِكَ يَوْمٌ يَسْمَعُ الْخَلْقُ صِيحَةَ الْبَعْثِ بِالْحَقِّ، ذَلِكَ الْيَوْمُ هُوَ
الْيَوْمُ الَّذِي يَخْرُجُ فِيهِ النَّاسُ أَحْيَاءً مِنْ قُبُورِهِمْ لِلْحَشْرِ وَالْحِسَابِ.
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى، وَنُمِيتُ الْأَحْيَاءَ بِقُدْرَتِنَا، وَإِلَيْنَا مَرْجِعُ
جَمِيعِ الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنَحَاسِبُهُمْ وَنُجَازِيهِمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ.
يَوْمَ تَتَصَدَّعُ الْأَرْضُ عَنِ الْأَمْوَاتِ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ
أَحْيَاءً، وَهُمْ مُسْرِعُونَ إِلَى أَرْضِ الْمَحْشَرِ، وَجُمُعُ النَّاسِ فِي
أَرْضِ الْمَحْشَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَمْعٌ سَهْلٌ وَهَيِّنٌ عَلَيْنَا، لَا تَعَبَ فِيهِ
وَلَا مَشَقَّةً.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُهُ الْكُفَّارُ مِنَ الْكَذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ،
وَالْتَكْذِيبِ بِآيَاتِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْإِنْكَارِ لِقُدْرَتِهِ عَلَى بَعْثِ عِبَادِهِ، وَمَا
أَنْتَ بِمُسَلِّطٍ عَلَيْهِمْ -يا مُحَمَّدُ- فَتُجْبِرَهُمْ عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ،
وَتَقْهَرَهُمْ عَلَى الْإِنْقِيَادِ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، فَذَكِّرْ -يا مُحَمَّدُ-
بِهَذَا الْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ عَذَابِي الَّذِي تَوَعَّدْتُ بِهِ مَنْ عَصَانِي.
أَقْسِمُ بِالرِّيَّاحِ الَّتِي تُفَرِّقُ الثَّرَابَ أَوْ الْمَطَرَ، أَوْ النَّبَاتِ الْيَابِسِ،
أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تُفَرِّقُهُ الرِّيحُ وَتَنْشُرُهُ
فَالسَّحَابِ الَّذِي يَحْمِلُ ثِقْلًا مِنْ مَاءٍ كَثِيرٍ
فَالسُّفُنِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبِحَارِ بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ

فالملائكة التي تُقَسِّمُ الأمورَ بَيْنَ الخَلْقِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَوَفَّقَ مَا
أَمَرَهَا بِهِ، كالأرزاقِ
إِنَّ الَّذِي يَعِدُكُمُ اللَّهُ بِهِ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَعَدٌ صَادِقٌ لَا كَذِبَ فِيهِ
مُطْلَقًا

وإنَّ حِسَابَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ وَمُجَازَاتَهُمْ لَشَيْءٌ كَائِنٌ وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ
أُقْسِمُ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الْخَلْقِ الْحَسَنِ الْمُتَّقِينَ الْمُحْكَمِ الْبِنَاءِ
إِنِّكُمْ - أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ - لَفِي أَقْوَالٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَنَاقِضَةٍ مُضْطَرِبَةٍ
فِي شَأْنِ تَكْذِيبِكُمْ بِالْحَقِّ، كَوَصْفِكُمُ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ سِحْرٌ وَشِعْرٌ
وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، أَوْ وَصْفِكُمُ النَّبِيَّ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ وَمَجْنُونٌ
وَشَاعِرٌ!

يُصِرُّ عَنْ الْإِيمَانِ بِسَبَبِ هَذَا الْقَوْلِ الْمُخْتَلَفِ مَنْ سَبَقَ فِي
عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ مَصْرُوفٌ
لَعَنَ أَوْلَئِكَ الْكَذَّابُونَ الَّذِينَ يَقُولُونَ الْبَاطِلَ فِي الدِّينِ، ظَنًّا مِنْهُمْ
بَلَا يَقِينُ!

الَّذِينَ هُمْ فِي الْبَاطِلِ غَارِقُونَ، وَعَنِ الْحَقِّ غَافِلُونَ، وَعَنِ
الْآخِرَةِ لَاهُونَ

يَسْأَلُ أَوْلَئِكَ الْمُكَذِّبُونَ بِالْبَعْثِ؛ اسْتِهْزَاءً بِهِ، وَاسْتِيعَادًا
لَوْقُوعِهِ: مَتَى يَقَعُ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي يَبْعَثُ اللَّهُ فِيهِ عِبَادَهُ لِمَحَاسِبَتِهِمْ
وَمُجَازَاتِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ؟!

يَقَعُ الْجَزَاءُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ فَيُحْرَقُونَ بِهَا
وَيُعَذَّبُونَ

يُقَالُ لَهُمْ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ حِينَهَا فِي النَّارِ: ذُوقُوا حَرِيقَكُمْ
وَعَذَابَكُمْ؛ جَزَاءَ كُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ، هَذَا هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي كُنْتُمْ

تَطْلُبُونَ تَعْجِيلَهُ فِي الدُّنْيَا؛ اسْتِهْزَاءً بِهِ، وَتَكْذِيبًا وَاسْتِبْعَادًا
لِقُوقِهِ!

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا سَخَطَ اللَّهِ تَعَالَى وَعَذَابَهُ بِامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ
وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ: لَمْسْتَقِرُّونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي جَنَاتٍ،
وَعُيُونٍ جَارِيَةٍ فِيهَا

أَخْذِينَ فِي الْجَنَّاتِ مَا أَعْطَاهُم اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النَّعَمِ وَالْخَيْرَاتِ،
إِنَّ الْمُتَّقِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُحْسِنِينَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، مُحْسِنِينَ إِلَى
عِبَادِ اللَّهِ.

كَانُوا يَنَامُونَ قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ، فَهُمْ يُكَابِدُونَ السَّهَرَ فِي اللَّيْلِ؛
لِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ.

وَهُمْ فِي آخِرِ اللَّيْلِ يَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ الْمَغْفِرَةَ لِذُنُوبِهِمْ
وَفِي أَمْوَالِ أَوْلَئِكَ الْمُتَّقِينَ الْمُحْسِنِينَ نَصِيبٌ ثَابِتٌ لِلْمُحْتَاجِ
الَّذِي يَسْأَلُهُمْ، وَلِلْمَحْرُومِ مِنَ الْمَالِ الَّذِي لَا يَسْأَلُهُمْ مِنْهُ شَيْئًا
وَفِي الْأَرْضِ دَلَائِلٌ وَعَلَامَاتٌ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ،
وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَغَيْرِهَا مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَذَلِكَ لِلْمُوقِنِينَ بِاللَّهِ
وَلِقَائِهِ وَصَدَقَ رُسُلُهُ

وَفِي أَنْفُسِكُمْ دَلَائِلٌ وَعَلَامَاتٌ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ
وَحِكْمَتِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ تِلْكَ
الدَّلَائِلَ؟!

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ مِنَ الْأَمْطَارِ، وَصُنُوفِ الْأَقْدَارِ
الْمَكْتُوبَةِ، وَفِي السَّمَاءِ مَا وَعَدْتُمْ بِهِ كَذَلِكَ
أَفْسِمُ بَرَبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ثَابِتٌ لَا شَكَّ فِيهِ، كَمَا
أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ حَقِيقَةً دُونَ أَدْنَى شَكٍّ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ

أَلَمْ يَأْتِكَ -يا مُحَمَّدٌ- خَبْرُ ضُيُوفِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُكْرَمِينَ عِنْدَ اللَّهِ، وَعِنْدَ إِبْرَاهِيمَ وَأَهْلِهِ بِحُسْنِ ضِيَافَتِهِمْ؟
وذلك حينَ دَخَلَ أولئك الملائكةُ على إِبْرَاهِيمَ، فقالوا له: نُسَلِّمُ عَلَيْكَ سَلَامًا، قال إِبْرَاهِيمُ لَهُمْ: سَلَامٌ دَائِمٌ عَلَيْكُمْ، قَوْمٌ غَيْرُ مَعْرُوفِينَ!

فانسلَّ إِبْرَاهِيمُ وَمَالَ إِلَى أَهْلِ بَيْتِهِ فِي خُفْيَةٍ عَنِ ضُيُوفِهِ؛ لِيُبَادِرَ بِإِكْرَامِهِمْ! فَأَحْضَرَ لَهُمْ عَجَلًا مِنَ الْبَقَرِ سَمِيًّا مَشْوِيًّا؛ لِيُكْرِمَهُمْ بِهِ!

فَقَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ الْعَجَلَ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ تَمْتَدَّ أَيْدِيهِمْ لِأَكْلِهِ! فَقَالَ عَارِضًا عَلَيْهِمُ الطَّعَامَ بِلُطْفٍ: أَلَا تَأْكُلُونَ!

فَشَعَرَ إِبْرَاهِيمُ فِي نَفْسِهِ بِخَوْفٍ مِنْهُمْ حِينَ امْتَنَعُوا عَنِ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ! فَقَالُوا مُطْمَئِنِّينَ لَهُ: لَا تَخَفْ مَنَّا. وَبَشَّرُوهُ بِوِلَادَةِ زَوْجِهِ سَارَةَ غُلَامًا يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَبِدِينِهِ، وَهُوَ إِسْحَاقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَأَقْبَلَتْ امْرَأَةُ إِبْرَاهِيمَ فِي صَيِّحَةٍ حِينَ سَمِعَتْ تِلْكَ الْبِشَارَةَ! فَضَرَبَتْ وَجْهَهَا بِيَدَيْهَا؛ تَعَجُّبًا مِمَّا سَمِعَتْهُ! وَقَالَتْ: أَنَا عَجُوزٌ عَقِيمٌ لَمْ أَلِدْ فِي شَبَابِي، فَكَيْفَ أَلِدُ الْآنَ بَعْدَ كِبَرِ سِنِّي، مَعَ عَدَمِ صَلَاحِيَّتِي لِلْحَمْلِ أَصْلًا؟!

قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهَا: هَذَا قَالَ رَبُّكَ إِنَّكَ سَتَلِدِينَ غُلَامًا كَمَا بَشَّرْنَاكَ! إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكِيمُ فِي أَعْمَالِهِ وَخَلْقِهِ، وَشَرُّعِهِ وَقَدَرِهِ؛ فَيَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ الصَّحِيحِ اللَّائِقِ بِهِ، وَهُوَ الْبَالِغُ الْعِلْمُ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ.

ar10126v1.0 - 06/09/2026